الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة سعيدة الدكتور مولاي الطاهر
كلية الآداب واللغات والفنون
قسم اللسانيات عامة

مذكرة لنيل شهادة ماستر في اللغة والأدب العربي اختصاص: اللسانيات؛ موسومة:

السياق بين آفاق الفكر اللِّساني العربي وواقع التنظيرات المعاصرة

تحت إشراف الأستاذ الدكتور:

إعداد الطالبتين:

* واضح أحمد

❖ زيان يسرى أماني

❖ مربوح خديجة

لجنة المناقشة :

الأستاذ :----------أ/د.زغوان امحمد----------رئيسا

الأستاذ :----------أ/د.واضح أحمد ----------مشرفا ومقررا

الأستاذ :----------أ/د. دين العربي----------ممتحنا

السنة الجامعية: 1447/1446 هـ/ 2024 - 2025م

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة شكر و تقدير

الحمد لله رب العالمين نحمده ونشكره إذ أنار طريقنا وتبث خطانا وأمدنا بالصبر
لإنجاز هذا العمل.

نتقدم بالشكر الجزيل والامتنان إلى الأستاذ المشرف الدكتور واضح أحمد على صبره
وتوجيهاته العلمية الدائمة وتحمل معنا عناء إنجاز هذه المذكرة

إلى السادة الدكاترة الأفاضل أعضاء اللجنة الموقرة الذين شرفونا بمناقشة هذه المذكرة
وإبداء النصائح العلمية حتى نعمل بها.

إضافة إلى جميع أساتذة قسم اللسانيات عامة بجامعة الدكتور مولاي الطاهر
وكل من ساعدنا من بعيد أو قريب فلكم منا جزيل الشكر والامتنان.

توقيع يسرى و خديجة

إهداء

إلى تلك السنوات التي شكّلت ملامحي، ورسمت على جدران قلبي قصة كفاحي، أهدي صورة أيامي الدراسية... ذكرى لا تُنسى، وركنًا من عمري لا يُقدّر بثمن.

إلى من لا تكفيهم الكلمات ، إلى من غمراني بحنانهما، وكسواني بثوب من دعواتهما، إلى من كانا ولا يزالان السند الثابت، والنبض الدافئ، والنور الذي لا يخبو...

إلى من علّماني أن الإرادة لا تعرف المستحيل، وأن النجاح يُولد من رحم الصبر والكدّ والتوكل...

إلى التي حملتني في قلبها قبل أن يحويني رحمها، وسهرت الليالي لأرتاح، وبكت في صمت كي أضحك...

.....إلى أمي الغالية

الى ذلك الجبل الشامخ، الذي لم يعرف للراحة سبيلًا كي لا أعرف أنا طعم الحرمان، ذلك الرجل العظيم الذي انحنى ظهره ليرتفع بنيانه فيّ، وتعبت يداه ليصفّق الجميع لنجاحي..... **إلى أبي الغالي**

إخوتي الأعزاء..... **زين الدين، فاروق، ونذير** .

يا من كنتم لي عزوة وسندًا،كنتم الحصن الذي احتميت به في ضعفي، والكتف الذي استندت عليه حين مالت بي الحياة، ضحكاتكم كانت النور في عتمة الأيام، وكلماتكم كانت بلسمًا لجراحي وسراجًا لدربي. لقد كنتم، وما زلتم، جزءًا لا يتجزأ من روحي، وإن كان لي أن أفخر بشيء في هذه الدنيا، فبأني أنتمي إليكم، أهديكم هذه المذكرة، لا لأنها ثمرة جهدي فحسب، بل لأنها أيضًا ثمرة حبّكم، وتشجيعكم، وصبركم معي في كل لحظة.

دمتم لي إخوة مدى الحياة... ورفقاء درب لا يعوّضهم الزمن.

إلى أغلى و أوفى صديقة، أهديك هذه المذكرة فلتكن شاهدا على صداقتنا الجميلة التي لا تنسى، دمتي صديقة و أختا..... **إلى خديجة**.

إهداء يسرى

إهداء

بعد مسيرة دامت سنوات حملت في طياتها الكثير من الصعوبات والمشقة، ها انا اليوم أقف على عتبة تخرجي اقطف ثمار تعبي وارفع قبعتي بكل فخر واعتزاز

اهدي هذا النجاح الى الذي زين اسمي بأجمل الالقاب من دعمني بلاحدود واعطاني بلا مقابل الى من علمني ان الدنيا كفاح وسلاحها العلم والمعرفة إلى فخري واعتزازي ومأمني ارجو من الله أن يمد في عمرك لترى من تمار قد حان قطفها ..... **أبي الغالي**

إلى قدوتي الأولى ومعنى الحب والتفاني الى بسمة الحياة وسر الوجود الى من كان دعاؤها سر نجاحي وحنانها بلسم جراحي الى من ارشدتني ورافقتني في كل مشاعر حياتي ولا تزال تفعل إلى الان اللهم احفظها وارزقها العفو والعافية..... **أمي العزيزة**

إلى الجبلين اللذين اسند نفسي عليهما عند الشدائد، إلى من أزاحوا عن طريقي المتاعب ممهدين لي الطريق زارعين الثقة والاصرار بداخلي

الى من شد الله بهم عضدي فكانو السند..... **محمد ومنير عبد الجليل**

الى نجوم سمائي المتلألئة وفرحتي في الدنيا أخواتي..... **رجاء و خلود**

الى من تحلت بالإخاء وتميزت بالوفاء والعطاء، رفيقة دربي الوحيدة..... **يسرى أماني**

الى كل من يحمل لقبي

الى كل من انار لي سبيل العلم في دربي وعلمني حرف..... **أساتذتي الكرام**

الى كل من ذكرهم قلبي ولم يكتبهم قلمي

إهداء خديجة

مقدمة

مقدمة:

الحمد لله وكفى والصلاة والسلام على حبيبنا المصطفى وعلى آله المستكملين الشرف وبعد يعتبر علم الدلالة من العلوم التي نالت اهتمام العديد من العلماء الدارسين في الظواهر اللغوية فهو أحد فروع علم اللغة الذي يهتم بدراسة المعنى في اللغة، سواء كان هذا المعنى على مستوى الكلمة المفردة أم الجملة في السياق العام للنص، يهدف علم الدلالة إلى فهم كيف تُكتسب المعاني، وكيف تُنقل، وكيف تتغير عبر الزمن أو السياقات المختلفة.

وقد ظهرت عدة نظريات دلالية حاولت تفسير طبيعة المعنى ومن أهمها: النظرية الإشارية (**Referential Theory**)، ونظرية الحقول الدلالية (**Semantic Field Theory**) والنظرية السلوكية (**behavioral theory**) والنظرية التصورية (**the conceptual theory**) و النظرية السياقية (**Contextual theory**) ، وكان اهتمامنا منصباً حول المعطى السياقي.

يُعد السياق عنصرًا محوريًا في دراسة المعنى، وقد أولاه علماء اللغة العرب الأوائل اهتمامًا كبيرًا، إذ رأوا أن فهم المعنى لا يتحقق بمعزل عن السياق الذي يرد فيه. وقد دعوا إلى دراسة العلاقات بين الألفاظ داخل الجملة أو النص، وربطها بالظروف والأحوال المصاحبة للكلام.

تعددت مفاهيم السياق لدى العلماء العرب؛ فقد اعتبره المفسرون قرينة تُستنبط منها دلالة الألفاظ، وهذه القرائن قد تكون لغوية أو حالية أو معنوية. أما النحاة والبلاغيون فركزوا على "مقتضى الحال" أو المقام، ويقصد به الزمان والمكان و بعض الحيثيات الاخرى الذي يُؤدى فيه القول.

ومع تطور الدراسات اللّسانية الحديثة، توسع النظر في مفهوم السياق حتى غدا نظرية قائمة تُعنى بدراسة المعنى، حيث لم يعد يُنظر إلى البنية اللغوية كافية لتحديد الدلالة، بل أصبح لزامًا إدراج العوامل الاجتماعية والثقافية والنفسية. فالمعنى يُستخلص من مقام الحديث، بما يشمله من نية المتكلم، وصفات المتلقي، والبيئة المحيطة بالفعل الكلامي (**speech act**).

وبذلك تظهر أوجه الالتقاء بين المفاهيم التراثية العربية والرؤى اللِّسانية الحديثة، مما يدل على وعي مشترك بأهمية السياق في تحديد المعنى. و منه صغنا الإشكالية على النحو التالي :

ما مفهومه؟ وكيف نظر إليه الفكر اللّساني العربي القديم؟ وما هي قيمة هذا المعطى وفعاليته في الدراسات اللّسانية المعاصرة؟

وعليه موضوع بحثنا الذي عنوناه ب :

السياق بين آفاق الفكر اللّساني العربي وواقع التنظيرات اللّسانية المعاصرة.

قمنا بإحاطة الموضوع بمقدمة تضمنت طرح أبرز التساؤلات التي سعينا للإجابة عنها، بمدخل ثم فصلان نظريان تناولا الأسس المفاهيمية والإطار النظري للبحث، أعقبهما فصل تطبيقي تناول الجانب العملي للموضوع. وقد اختتمنا البحث بخاتمة"

ويمكن تفصيل خطة بحثنا بما يأتي:

مدخل تمهيدي حول السياق.

الفصل الأول تم التطرق فيه عن السياق من خلال آفاق التراث العربي القديم يحضر السياق في البلاغة العربية كعنصر أساسي لفهم المعنى من خلال المقام والنظم، وفي النحو يتجلى في ترابط التراكيب وتحديد الوظائف الإعرابية وفق موقع الكلمة، أما في أصول الفقه، فيُوظَّف لفهم النصوص الشرعية عبر أسباب النزول والقرائن والسياقات التشريعية.

وفي الفصل الثاني ينطلق المعطى السياقي عند مالينوفسكي وفيرث من اعتبار اللغة ظاهرة اجتماعية لا تُفهم إلا ضمن سياقها الثقافي والتفاعلي، وقد تطور هذا المفهوم في اللسانيات الوظيفية المعاصرة، حيث أضحى السياق مكونًا بنيويًا في تحليل المعنى، بينما تمثّل في التداوليات النصية في تماسك الخطاب وربطه بعوامل المقام، كما ركّزت نظرية التلفظ على السياق بوصفه شرطًا لتحديد المقاصد التواصلية والوظائف التداولية للقول.

وفي الفصل الثالث خصصناه كجانب تطبيقي، للسياق أداة مركزية لفهم المعاني في مختلف العلوم اللغوية والشرعية. ففي النحو، يُساهم السياق في تحديد الوظائف الإعرابية وضبط المعنى وفق المقام، مما يمنع اللبس في التركيب، أما في البلاغة العربية، فيُستثمر السياق لإبراز جماليات الكلام وتوظيف الأساليب بما يناسب الحال والمخاطب. وفي علم التفسير، يلعب السياق دورًا حاسمًا في فهم الآيات، إذ يراعي أسباب النزول وترتيب السور والآيات لفهم مراد الله تعالى، بينما في الفكر التداولي،

تُبرز تمظهرات السياق وأثره في تحديد المقاصد الحقيقية للخطاب، انطلاقًا من الظروف المقامية والسياقية التي تحيط بالكلام. بذلك، يتكامل السياق في هذه العلوم لفهم أعمق وأدق للغة والدين.

و في الأخير توصلنا إلى خاتمة ضمّناها بعض النتائج.

وقد إعتمدنا في التعامل مع هذا الموضوع على المنهج الوصفي .

و من أبرز الأسباب لاختيارنا هذا الموضوع :

على المستوى الذاتي، تمثلت دوافع الباحث في اهتمامه العميق بقضايا اللسانيات العامة، وانشغاله المستمر بالمقاربات التداولية التي وضعت السياق في قلب التحليل اللغوي، مقابل الخلفية العلمية الراسخة في حقل البلاغة العربية التي لا تقل شأنا في هذا الباب.

أما على ا لمستوى الموضوعي، فقد بدا جليا أنّ الدراسات التي تجمع بين الطرح التراثي العربي والمنهج اللساني المعاصر لا تزال محدودة، الأمر الذي يفرض تحدايا معرفيا يستحق التناول.

تنبع أهمية هذا الموضوع من كونه يسلّط الضوء على عنصر مركزي في التحليل اللغوي، وهو السياق، الذي اعتُبِر لفترة طويلة غير مهم في بعض التيارات اللسانية البنيوية، قبل أن يعاد إليه الإعتبار ضمن النظريات التداولية والسيميائية المعاصرة. كما أن العودة إلى التراث اللساني العربي للكشف عن تمثلات هذا المفهوم فيه، تمثل مساهمة في ردّ الاعتبار لجهد علمي أصيل ظل حبيس المقاربات التاريخية.

يسعى هذا البحث إلى تحقيق الأهداف التالية:

- تحليل التطور النظري لمفهوم السياق في الفكر اللساني المعاصر، مع إبراز أهم المدارس التي تبنته.
- استكشاف تجليات السياق في التراث العربي، خصوصًا في كتب البلاغة والأصول واللغة، من خلال أعلام مثل عبد القاهر الجرجاني والشاطبي وابن جني.
- عقد مقارنة منهجية بين المنظورين العربي والغربي للسياق، بما يكشف عن عناصر الالتقاء والافتراق.
- اقتراح نموذج قرائي يعتمد على التكامل بين المرجعيتين في معالجة النصوص وتحليلها.

أهم الكاب التي استندت عليها خلال بحثنا هذا:

عمر بلخير، مقالات في التداوليات والخطاب، الامل للطباعة والنشر والتوزيع

عبد القهار الجرجاني ، دلائل الإعجاز ، دار المعارف.
د. نهاد الموسى، نظرية النحو العربي، د.ط، دار البشير للثقافة والعلوم.
رومان ياكبسون، قضايا الشعرية، ت: محمد الولي، مبارك حنوز.

واجهتنا في هذه الدراسة جملة من الصعوبات، أبرزها نقص المراجع التطبيقية المتخصصة، مما استلزم جهدًا مضاعفًا في التحليل والغوص في بحر المعلومات المتاحة، وقد زاد من التحدي تشعب مفهوم "السياق" وتعدد زوايا تناوله، مما تطلب استحضار خلفيات معرفية متنوعة تشمل البلاغة، والأصول، واللسانيات. كما شكّل التباين الاصطلاحي والتأويلي بين التراث العربي والنظريات الغربية عائقًا في مسار المقارنة والتقريب، هذا إلى جانب قلة الدراسات السابقة في هذا المجال، وصعوبة نفاذ بعض المراجع الأجنبية التي لم تتوفر إلا بلغاتها الأصلية.

و لكن بفضل الله عز و جل و أستاذنا الفاضل تمكنا من اتمام بحثنا هذا و نرجو أننا قد اوفيناه حقه ولو قليلا ، و نتمنى من كل باحث لساني في المستقبل أن يسلط الضوء على موضوعنا لأنه ثمين .

نتقدم بخالص الشكر وعظيم الإمتنان إلى أستاذنا المشرف، الذي لم يبخل علينّا بتوجيهاته القيمة وملاحظاته البنّاءة، فكان دعمه العلمي والمعنوي منبر أنار لنا طريق البحث، فله منا كل التقدير والإحترام.

كما نتوجّه بجزيل الشكر والتقدير لأعضاء لجنة المناقشة الموقّرين على قبولهم مناقشة هذا العمل العلمي، وعلى ملاحظاتهم الهادفة التي ساهمت في إغناء محتواه وتحسينه.

ولاية سعيدة: 21_05-2025

زيان يسرى أماني

مربوح خديجة

مدخل

في مفهوم السياق:

هناك غالبا – علاقة وثيقة بين الوضع اللغوي والوضع الاصطلاحي للكلمات فالمدلول الاصطلاحي للفظ، متى كان موصولا بمدلوله اللغوي سهل مأخذه على الفهم؛ ومتى كان مفصولا عنه عسر على الذهن إدراكه[1] فالمصطلحات هي مفاهيم العلوم على حد تعبير الخوارزمي، وقد قيل إن فهم المصطلحات نصف العلم ومعرفة المصطلح ضرورة لازمة للمنهج العلمي، إذ لا يستقيم منهج إلا إذا بني على مصطلحات دقيقة وواضحة[2]...

"س–و–ق" في القرآن:

وردت كلمات مشتقة من الجذر "سوق "في القرآن بمعاني مختلفة، منها:

"يُسَاقُونَ"، مثل في قوله تعالى:

" يَوْمَ يُسْحَبُونَ فِي النَّارِ عَلَىٰ وُجُوهِهِمْ ذُوقُوا مَسَّ سَقَرَ "(القمر:48)[3]

أو في سياق سوق الناس أو الأنعام، مثل:

" وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا" (الزمر:73)[4]

" وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا" (الزمر:71)[5].

[1] طه عبد الرحمن، تجديد المنهج في تقويم التراث المركز الثقافي العربي الدار البيضاء، المغرب، ط04، 2012، ص334

[2] مهدي صالح سلطان الشمري في المصطلح ولغة العلم، كلية الآداب، جامعة بغداد، بغداد، (د، ط) 2012، ص61.

[3] سورة القمر الآية 48.

[4] سورة الزمر الآية 73.

[5] سورة الزمر الآية 71.

وأما الفيروز آبادي Al-Fayrouzabadi (ت817هـ) ففي مادة (س، و، ق) يورد من دلالاتها الآتي: "الساق ما بين الكعب والركبة. وساقةُ الجيش، مؤخره، واستاقها فهو سائق وسواق، والمنساق: التابع والقريب"[1].

وقد ذكر الزمخشري (ت 467هـ) سياق الكلام في معرض حديثه عن السياق فقال: "وهو يسوق الحديث أحسن سياق، وإليك يا ساق الحديث. وهذا الكلام مساقه إلى كذا، وجنتك بالحديث على سوقه على سرده[2].

وبالنظر في الألفاظ اللغوية التي ذكرها المعجميون لمادة (س، و، ق) يمكن لنا أن نستشف المعاني الآتية: السرد والإيراد والتتابع. وكذا الاتصال وعدم الانفصال. وأيضا التزاحم والالتفاف. وتعني أيضا الأباع والقرب والتقديم. وتعني الموضع والموقف والتجميع، كما تعني، الحدث، كما في قولهم سوق الإبل، وهو المعنى الحسي والأصلي للكلمة، ثم تحول مجازا إلى ما يساق وهو الصداق إبلا كانت أو غيرها. كما تعني النزع نزع الروح، فهو دلالة على الظرف أو الحال التي يحدث فيها الموت. وعلى هذا فإن كلمة ساق تثير في الذهن معنى لحوق شيء لشيء آخر، واتصاله به، واقتفائه أثره، كما تثير معنى الارتباط والتسلسل والانتظام في سلك واحد"[3]. كما تثير هذه الكلمة معنى التأليف والتوارد والاتصال.

أهمية السياق. يضطلع السياق بأدوار كثيرة وهامة، وقد أولى له القدماء على اختلاف مشاربهم- اهتماما بالغا نظير دوره في إيضاح الدلالة والكشف عن المعنى، وجعلوه طريقا آمنا لتفسير كلام الله عزّ

[1] القاموس المحيط تح يوسف البقاعي، دار الفكر، بيروت، لبنان، (د، ط)، 2010، ص806.

[2] أساس البلاغة، تح محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط01، 1998، ص 484.

[3] عبد الوهاب أبو صفية، دلالة السياق منهج مأمون لتفسير القرآن الكريم، دار عمار، عمان، الأردن، ط02 2012، ص 85.

وجلّ، وسنة نبيه .. وتعد الاستعانة به وجعله أساسا في التفسير والتأويل من مستلزمات تحقيق المعنى، وقد عروا عنه بمصطلحات عديدة وكلها تلتقي في دلالة تكاد تكون واحدة، فقد عووا عنه بالقرينة، ودلالة الحال، ومقتضيات الأحوال، والمقام، والمساق، والسباق واللحاق[1]، والسياق وما إلى ذلك.

[1] استخدم الأصوليون مصطلح (السياق) للإشارة إلى اللفظ الذي يسبق أو يتبع اللفظ المعنى (سواء أكانت كلمة أو قولة) غير أنه عندما يستخدم مصطلح (سياق) في مقابل مصطلح (سباق)، فإن الأول يقصر على الألفاظ اللاحقة، في حين يطلق الثاني على الألفاظ السابقة (محمد محمد يونس علم التخاطب الإسلامي دراسة لسانية لمناهج علماء الأصول في فهم النص، دار المدار الإسلامي، ط01، 2006، ص 65.

الفصل الأول: السياق من خلال آفاق الفكر اللّساني العربي القديم

1. السياق من خلال أفق الدرس البلاغي العربي
2. السياق من خلال أفق التراث النحوي العربي
3. السياق من خلال أفق أصول الفقه

توطئة:

شكّل مفهوم السياق محورًا أساسيًا في الدراسات اللسانية والفلسفية، إذ اقترن تحليل المعنى وتفسير النصوص بإدراك العوامل المحيطة بالكلام. وقد أولى الفكر اللساني الحديث أهمية كبرى للسياق بوصفه عنصرًا جوهريًا في التحليل الدلالي والتداولي، غير أن جذوره تمتد إلى الفلسفات القديمة، خصوصًا لدى أفلاطون وأرسطو. ففي كراتيلوس، ناقش أفلاطون العلاقة بين الألفاظ ومعانيها ضمن رؤية مثالية ترى أن الكلمات تحيل إلى كينونات ثابتة، مما يقلل من دور السياق التداولي، وإن كان قد أبدى وعيًا بأثر الاستعمال في توليد الدلالة. أما أرسطو، فتبنى مقاربة واقعية، معتبرًا أن المعنى مشروط بمقام الاستعمال، كما يتضح في نظرياته حول الخطابة والجدل، وفي كتاب العبارة، حيث ربط اللغة بالفكر والواقع.

هذا التباين بين النزعة التجريدية لدى أفلاطون والمقاربة التجريبية التداولية لدى أرسطو أسهم في بلورة اتجاهات لاحقة أكدت مركزية السياق في إنتاج المعنى، لا سيما في النظرية التداولية المعاصرة. أما في التراث العربي، فقد كان الوعي بالسياق حاضرًا بقوة في أعمال النحويين والبلاغيين والأصوليين؛ إذ برزت القرائن النحوية واللفظية في التأويل النحوي منذ سيبويه، واهتم الجرجاني بنظرية النظم التي تربط المعنى بكيفية ترتيب الكلمات، فيما اعتبر الشاطبي أن فهم النصوص الشرعية مشروط بظروفها وسياقاتها الخطابية. يعكس هذا الامتداد التاريخي لتطور مفهوم السياق الانتقال من الرؤية الشكلية إلى التداولية، ويؤسس لفهم أعمق لتحليل اللغة في ضوء مقاصدها ومقامات استعمالها.

1-السياق من خلال أفق الدرس البلاغي العربي

يظهر إدراك البلاغيين لأهمية السياق في اشتراطهم مطابقة الكلام لمقتضى الحال، واشتهرت مقولاتهم أنّ: (لكل مقام مقال) و(لكل كلمة مع صاحبتها مقام)[1]، والتي تعبر عن ذلك، إذ لا يقتصر المعنى على السياق اللغوي (المقال)، بل يتجاوزه إلى سياق الحال (المقام). وهذا المبدأ البلاغي تضمنته صحيفة بشر بن المعتمر (**Bishr ibn al-Mu'tamir**) (210هـ) الذي نُقِلَ عنه قوله: "المعنى ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة، وكذلك ليس يقبح بأن يكون من معاني العامة، وإنّما مدار الشرف على الصواب، وإحراز المنفعة مع موافقة الحال، وما يجب لكلّ مقام من المقال"[2].

إدراك البلاغيين العرب لمفهوم "المقام" يُعدّ إنجازًا معرفيًا رائدًا، حيث أبرزوا العلاقة بين الخطاب وسياقه التداولي قبل الفكر اللساني الغربي المعاصر بحوالي ألف سنة. فقد أدركوا مبكرًا أهمية التفاعل بين "المقام والمقال" في تحليل المعنى، وهو ما أصبح من أساسيات اللسانيات التداولية الحديثة. وتجلى هذا التقدم في أعمال عبد القاهر الجرجاني، الذي أسس نظرية لغوية بلاغية تركز على السياق في إنتاج الدلالة وتأويلها، عبر مفاهيم مثل "النظم" و"مطابقة الكلام لمقتضى الحال"، مما يعكس تصورًا تداوليًا متقدمًا للغة[3].

وقد اهتم البلاغيون بملمح السياق وعدّوه أصلاً لما يمكن أن توصله الرسالة اللغوية، وتنوعت تعليقاتهم حول السياق في إطار بحوثهم المختلفة للنص القرآني. ونلحظ عند أبي عبيدة (210 هـ) إشارته إلى الكيفية التي يتم التوصّل بها إلى فهم المعاني القرآنية، وإدراك دلالاتها المتنوعة الثرية وذلك حسب السياق التي ترد فيه،

---

[1] القزويني، الإيضاح، 1/ 9. وينظر: د. فوزي عبد الرزاق، السياق ودلالته في توجيه المعنى، الطبعة الثانية، دار الكتب العلمية، بيروت، 2010، ص34.

[2] أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، المحقق: عبد السلام محمد هارون، البيان والتبيين، الطبعة: السابعة الجزء الأول، دار الجيل، بيروت، 1988 م (1418 هـ)، ص136.

[3] د. تمام حسان، اللغة العربية؛ معناها ومبناها، الطبعة السادسة، دار النشر: عالم الكتب، القاهرة، 2009م، ص337.

وكان ذلك حافزاً أساسياً لوضعه (مجاز القرآن) أو كما يقصده بأنه: "الطرق التي يسلكها القرآن في تعبيراته"[1].

عمد الجاحظ في كتابه *البيان والتبيين* إلى مناقشة سياق المقام كأداة رئيسية لفهم المعاني في النصوص. حيث أشار إلى أن السياق يمكن أن يكشف عن معاني الكلمات والألفاظ التي قد تكون غامضة في ظاهرها. ويعتبر الجاحظ أن السياق، سواء كان لغويًا أو اجتماعيًا أو تاريخيًا، يساهم في توضيح المعنى الصحيح للكلمة، وأنه من خلال فهم هذا السياق يمكن للقارئ أن يصل إلى المعنى الدقيق المراد. وقد اعتبر الجاحظ أن فهم السياق ضروري لتفسير النصوص بوضوح ودقة، معتمدًا على الأدلة القرآنية والنبوية التي تشدد على ضرورة تفسير الكلمة في إطارها الشامل[2].

في تفكير الجاحظ، يُعد تمييز أصناف الدلالات على المعاني خطوة أساسية لفهم الأساليب التي يستخدمها المتكلم للتعبير عن أهدافه. يقدم الجاحظ تقسيمًا دقيقًا لهذه الدلالات، مُعَرِّفًا إياها ضمن خمسة أصناف رئيسية هي: اللفظ، الإشارة، العقد، الخط، والحال. يُولي الجاحظ أهمية كبيرة للحال، ويُعرِّفها بأنها الدلالة التي تحل محل الأصناف الأخرى دون أن تكون أقل فعالية في نقل المعنى. يوضح الجاحظ أن الحال، في سياق الكلام، يشير إلى الظروف أو السياق الذي يُحيط بالحديث أو الموقف الذي يُقال فيه الكلام، وهذا السياق يعد العنصر الحاسم في تحديد المعنى المراد، إذ يُساعد في تفسير الكلمات والأفعال وفقًا

[1] أبو عبيدة، مجاز القرآن، المحقق: أحمد فريد المزيدي، دار الكتب العلمية، بيروت، الجزء 01، 2006 م-1427هـ، ص19.
[2] الجاحظ، البيان والتبيين، مرجع سابق، ص136.

للظروف المحيطة. وبالتالي، تصبح الحال أداة رئيسية لفهم النوايا والمعاني التي قد تكون خفية أو غير واضحة إذا فُصِلَت عن السياق[1].

ويؤكد الجاحظ على أنّ مدار الأمر في عملية التواصل اللغوي بكلّ أبعاده يتحدّد في أنّ " لكلّ ضرب من الحديث ضرب من اللفظ، ولكلّ نوع من المعاني نوع من اللفظ، ولذلك يجب إفهام كلّ قوم بمقدار طاقتهم، والحمل عليهم على أقدار منازلهم"[2].

عند صياغة الرسالة اللغوية، يجب أن تؤخذ أحوال المتلقين وبيئة التلقي بعين الاعتبار لضمان فاعلية الرسالة. وفقًا للقاضي الجرجاني، فإن السياق يؤثر بشكل كبير على بناء النص اللغوي، حيث يتفاوت تأثير المقامات المختلفة في التعبير. يوضح الجرجاني أن اختلاف الأشخاص في طريقة التعبير يعود إلى تنوع الطبائع وتركيب الخلق، فسلامة اللفظ ترتبط بسلامة الطبع، ودماثة الكلام تكون بمقدار دماثة الخلقة. يظهر ذلك في اختلاف أسلوب الحديث بين الناس، فبعضهم يتسم بالسهولة والوضوح بينما يعاني آخرون من تعقيد في اللفظ وصعوبة في الخطاب، ويُظهر ذلك بشكل خاص في البيئة البدوية[3].

ويرى د. هادي نهر Dr. Hadi Nahar في تعليقه على منهج القاضي الجرجاني في إبراز أثر السياق وتأثره أنه توصّل إلى حقيقتين علميتين تُعدان حديثاً من منجزات الدلاليين المعاصرين، وهما[4]:

[1] الجاحظ، البيان والتبيين، مرجع سابق، ص76.

[2] الجاحظ، البيان والتبيين، مرجع نفسه، ص93.

[3] القاضي الجرجاني، الوساطة، المحققان: محمد أبو الفضل إبراهيم وعلي محمد البجاوي، دار المعارف، القاهرة، 1992، ص187.

[4] د. هادي نهر، علم الدلالة التطبيقي، تقديم: الدكتور علي الحمد، الطبعة الأولى، دار الأمل للنشر والتوزيع، إربد، الأردن، 2007، ص281.

الأولى: أنّ سلامة اللفظ تتبع سلامة الطبع، والسلامة المقصودة عند الجرجاني لا تتمثل في السلامة اللغوية النابعة من بيئة اللغة من حيث بداوتها أو حضريتها، وإنّما هي السلامة المرتبطة باتفاق العبارة أو الجملة مع الموقف النفسي للمرسِل أثناء صياغة رسالته.

والثانية: تميّز صاحب الرسالة ومنشؤها بخصائص في ألفاظه ولهجته، مما يؤكّد أهمية الجانب الصوتي في صياغة الرسالة اللغوية، وما يتعلّق بها من ظروف محيطة تتمثل في سياق الموقف أو المقام.

ومن وصايا ابن قتيبة (276 هـ) للكتّاب بوجوب مراعاة مقتضى الحال عند ممارسة الصنعة، وذلك في الألفاظ والمعاني على السواء. يقول: "ونستحبّ له (أي الكاتب) أن ينزل ألفاظه في كتبه فيجعلها على قدر الكاتب والمكتوب إليه، وألا يعطي خسيس الناس رفيع الكلام، ولا رفيع الناس وضيع الكلام"[1].

أما الرّماني (396هـ) فقد اتّضح في كلامه معرفته التامة بأهمية السياق في إدراك عناصر الرسالة اللغوية رغم ما يمكن أن يعتبرها من انزياحات في التركيب أو في الدلالة عن طرق توظيف فنيات الحذف والاختصار والتقديم والتأخير[2].

وترى د. عواطف المصطفى: Dr. Awatif Al-Mustafa "أنّ حديث الرماني عن السياق بوصفه البيان هو الوسيلة الكاشفة لنا عن قناع المعنى، وكذا السياق"[3].

ويذهب أبو هلال العسكري (395هـ) إلى أنّ اختلاف العبارات يوجب اختلاف المعاني، وأنّ السياق هو الوسيلة التي تفرّق بين قصدية معنى في مقام عن معنى آخر، فالمعاني تناسب ما تشير إليه.

[1] ابن قتيبة، أدب الكاتب، د.ط، دار الجيل للطبع والنشر والتوزيع، بيروت، 2001، ص19.

[2] ينظر: الرماني، النكت في إعجاز القرآن، المحقق: عبد الله عباس الندوي، دار الكتب العلمية، بيروت، 2020، ص79-80.

[3] د. عواطف المصطفى، الدلالة السياقية عند اللغويين، د.ط، دار السياب للطباعة والنشر والتوزيع، لندن، المملكة المتحدة، 2007، ص97.

يقول: "الشاهد على اختلاف العبارات والأسماء يوجب اختلاف المعاني أنّ الاسم كلمة تدلّ على معنى دلالة الإشارة، وإذا أشير إلى الشيء مرة واحدة فعُرِف"[1]. فالقيمة الوظيفية للكلمة تتضح من خلال سياقها التي قيلت فيه، ومقامها التي تدلّ عليه.

وتميّز عبد القاهر الجرجاني (471هـ) في تطبيق مفهوم السياق أثناء حديثه عن نظرية النظم، إذ "لا يعد الكلمة نقطة البدء- كما يظن- وإنما العكس هو الصحيح، فالسياق هو نقطة البدء، بحيث لا يمكن وجود كيان للتعبير إلا من خلاله، وحينئذ من الواجب رصد السياق، ثم البحث عن الألفاظ وعلاقتها فيه ثانياً"[2].

وركز الجرجاني اهتمامه بدلالة النظم (السياق)، وأنّ اللفظ يكتسب معناه من التركيب وذلك لأنّ " الألفاظ المفردة التي هي أوضاع اللغة لم توضع لتعرف بها معانيها في أنفسها، ولكن لأن يضم بعضها إلى بعض، فيعرف فيما بينها فوائد"[3]. تعريف البلاغة يشير إلى مطابقة الكلام لمقتضى الحال أو المقام، وهي ما يُسمى بـ «سياق الموقف Context of the situation ". يختلف مقام الكلام باختلاف السياق الذي يقال فيه، مثلًا مقام الفخر يختلف عن مقام المدح، ومقام الدعاء يختلف عن الهجاء. بلاغة الكلام تتمثل في توافقه مع مقتضى الحال مع الحفاظ على فصاحته، حيث يتفاوت الكلام باختلاف المقامات، مثلًا التنكير يختلف عن التعريف، والإطلاق يختلف عن التقييد، والتقديم يختلف عن التأخير. كل مقام له أسلوب

[1] أبو هلال العسكري، الفروق في اللغة، المحقق: جمال عبد الغني مدغمش، د.ط، مؤسسة الرسالة ناشرون، بيروت، 2016، ص13.

[2] د. محمد عبد المطلب، البلاغة والأسلوبية، الطبعة: الأولى، مكتبة لبنان ناشرون، الشركة المصرية العالمية للنشر، 1994، ص241.

[3] عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق محمود محمد شاكر، الطبعة: الخامسة، مكتبة الخانجي – القاهرة، 2004، ص386.

خاص يتناسب مع الموقف، مثل الإيجاز مقابل الإطناب verbosity ، أو خطاب الذكي مقارنة بخطاب الغبي[1].

يتناول النص التفاوت الجمالي بين الأساليب اللغوية وكيفية تأثير السياق اللفظي والحالي في تحديد المعنى. يشير إلى أن المفسرين والأصوليين ركزوا على أهمية السياق في تفسير النصوص، وفهموا كيفية تغير المقام في تأويل العبارة. في المقابل، رغم اهتمام الأدباء بالسياق، إلا أنهم لم يفصلوا فيه كما فعل المفسرون. يضرب النص مثلاً بالآية الكريمة: "وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا"، حيث يختلف المعنى باختلاف السياق. إذا تم تقدير محذوف، يفهم المعنى على أنه "واسأل أهل القرية"، أما إذا كان السياق مختلفًا، كما في حديث عن قرية مهجورة، يتغير المعنى ليصبح "سل القرية عن أهلها"[2].

وكذلك تناول الجرجاني أثر السياق الثقافي في التمييز بين الحقيقة والمجاز، وما يتصل بثقافة المتكلم ومعتقداته. فقد عَلَّقَ على قول الصلتان العبدي[3]:

أشابَ الصغيرَ وأفنى الكبيرَ كَرُّ الغداة ومَرُّ العشيّ!

وقول ذي الإصبع العدواني[4]:

أَهْلَكَنَا الليلُ والنهارُ معاً والدهرُ يغدو مُصَمِّماً جَذَعاً !

عَلَّق عبد القاهر على ذلك بقوله: " كان طريق الحكم عليه بالمجاز أن تعلم اعتقادهم التوحيد، إما بمعرفة أحوالهم السابقة، أو أن تجد في كلامهم من بعد إطلاق هذا النحو، ما يكشف عن قصد المجاز فيه"[5].

[1] القزويني، الإيضاح، مرجع سابق، ص09.

[2] عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، تحقيق عبد الحميد هنداوي، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، 2001م-1422هـ، ص422.

[3] ينظر: المبرد، الكامل، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الطبعة الثالثة، دار الفكر العربي، القاهرة، مصر، 1997م-1417هـ، ص1101.

[4] ينظر: ابن قتيبة، الشعر والشعراء، تحقيق أحمد محمد شاكر، الطبعة الأولى الجزء الثاني، دار المعارف، القاهرة، مصر، ص579.

[5] عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، مرجع سابق، ص389.

وكتابا عبد القاهر الجرجاني؛ (دلائل الاعجاز) و(أسرار البلاغة) خير ما يمثل عناية البلاغيين بالسياق اللفظي (النظم) وأهميته في تحديد قيمة الكلمة، وبيان تفاوت البلغاء في إنشائهم حسب مقدراتهم، وتوفيقهم في إحكام النظم، واستعمال وسائله في الدلالة على المعاني[1].

ويذهب ابن رشيق (456هـ) إلى اعتماد المقولة البلاغية (لكلّ مقام مقال) أساساً لفكرة السياق وتمثلاتها في الشعر والنثر. يقول في حديثه عمّا يحتاجه الشاعر: "أوّل ما يحتاج إليه الشاعر بعد الجدّ الذي هو الغاية، وفيه وحده الكفاية، حسن التأنّي والسياسة، وعلم مقاصد القول، فإن نسبَ ذلَّ وخضع، وإن مدحَ أطْرى وأسْمَع، وإن هجا أخلَّ وأوْجع، وإنْ فخَرَ خبَّ ووضّع، وإنْ عاتَبَ خفَضَ ورَفَع، وإنْ استعطَفَ حنَّ ورجَع. ولتكن غايته معرفة أغراض المخاطَب كائناً مَنْ كان، ليدخل إليه من بابه، ويداخله في ثيابه، فذلك هو سرّ صناعة الشعر، ومغزاه الذي تتفاوت به الناس، وبه تفاضلوا. وقد قيل: لكلّ مقام مقال"[2].

ويرى د. ردّة الله أنّ ابن رشيق يربط قول الشعر بأغراضه التي هي عنده (المقامات التي يقال فيها)، بل ويجعل هذه المقامات على نوعين هما:

الأول: المقامات الفردية التي تتمثّل في الأغراض الشعرية الذاتية للشاعر.

والثاني: المقامات الجماعية الاحتفالية، أي خطاب الشاعر للآخرين.

وقصد ابن رشيق من ذلك إنما يتعلّق بما أورده من وجوب معرفة الشاعر بعلم مقاصد القول، أي الأغراض (السياقات) التي ينبغي على الشاعر أن يراعيها عند إنشاء الشعر[3].

---

[1] ينظر: د. طاهر حمودة، دراسة المعنى عند الأصوليين، د.ط، دار الجميل للنشر والتوزيع والإعلام، مصر، 2001، ص224.

[2] ابن رشيق، العمدة، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، 2001، ص199.

[3] ردة الله بن ردة بن ضيف الله الطلحي، دلالة السياق، رسالة دكتوراه قُدّمت إلى كلية اللغة العربية بجامعة أم القرى في مكة المكرمة، 2003م-1424هـ، ص91.

أما عند السكاكي (626هـ)، يتمثل مبدأ مطابقة الكلام لمقتضى الحال في مراعاة اختلاف مقامات الكلام وفقًا لسياقات المتلقي المختلفة. يشير إلى أن كل مقام له خصوصيته، فمقام الشكر يختلف عن الشكاية، ومقام التهنئة يختلف عن التعزية، وكذلك المدح والهزل. كما يبين أن الكلام يختلف حسب الظروف مثل الاستخبار أو الإنكار. ويؤكد أن الاختلاف في فهم المتلقي، كأن يكون ذكيًا أو غبيًا، يستدعي تغييرات في أسلوب الكلام. يرتفع أو ينخفض شأن الكلام وفقًا لمناسبته للمقام، وهذا هو ما يطلق عليه "مقتضى الحال"[1].

يُظهر السكاكي فهماً عميقاً لتأثير السياق في اختيار أساليب التعبير، حيث يؤكد على ضرورة مراعاة أحوال المتلقين والبيئة الثقافية التي ينتمون إليها عند صياغة الكلام. كما يتفق القزويني مع السكاكي في هذا التصور، ويشير إلى أن "مقتضى الحال" يعبر عن التكيف المناسب للكلام مع السياق، وهو ما وصفه عبد القاهر الجرجاني بـ "النظم". ويعني النظم عنده تآلف معاني النحو مع الكلمات بما يتوافق مع الأغراض التي يُصاغ لها الكلام، مما يساهم في فهم الرسالة بشكل دقيق ومؤثر[2].

مقتضى الحال يعد من أبرز أعمدة البحث البلاغي عبر العصور، حيث يعتُبر أحد الشروط الأساسية في تعريف البلاغة، بحسب البلاغيين. ويشير د. نهاد الموسى إلى أن النظم البلاغي يقوم على ضرورة موافقة الكلام لمقتضى الحال، أي ارتباطه بالمقام المناسب. ويؤكد الموسى أن تأثير السياق، خاصة حال المتكلم

[1] السكاكي، مفتاح العلوم، تحقيق نعيم زرزور، الطبعة الثانية، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان،1987م-1407هـ، ص80.

[2] القزويني، الإيضاح، ص11. وينظر: عبد القاهر، دلائل الإعجاز، مرجع سبق ذكره، ص42.

والمخاطب، له دور كبير في تشكيل الكلام وتأليفه. كما يلفت إلى أن النظم البلاغي يتنوع وفقاً لتنوع المقامات، حيث يتكيف القول ويُصاغ ليتناسب مع كل حالة أو ظرف[1].

والسياق عند السعد التفتازاني (791 هـ) هو الحال (النصبة). يقول السعد في تعريفه لبلاغة الكلام: "هي مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته، والحال هو الأمر الداعي للمتكلّم إلى أن يعتبر مع الكلام الذي يؤدي به أصل المراد خصوصية ما، وهو مقتضى الحال، مثل كون المخاطب منكراً للحكم حال يقتضي تأكيد الحكم، والتأكيد مقتضى الحال، وقولك: إنّ زيداً في الدار مؤكداً بإنّ كلاك مطابق لمقتضى الحال"[2].

ابن يعقوب المغربي يفرّق بين "الحال" و"المقام" في إطار فلسفي يعتمد على العقلانية البلاغية. يرى أن "المقام" يشير إلى حالة محددة تنشأ نتيجة مواقف وأسباب معينة، مثل "مقام المدح" أو "مقام التأكيد". بينما "الحال" يعتبر العنصر المكمل للمقتضى، ويتغير حسب الزمان والمواقف. الفارق الفلسفي بينهما يكمن في أن "المقام" يتعلق بالسبب والسياق الخاص، بينما "الحال" يتعلق بالزمان أو الوضع الزمني المتحول. لذا، التمييز بين المصطلحين يرتبط بتفسير المتلقي، مما يبرز الطابع التواصلي المتغير للكلام وتأثيره في فهم المستمع أو القارئ[3].

ويرى د. ردة الله بن ضيف أنّ " البلاغيين اهتموا بالسياق بنوعيه، إلا أنّ سياق الموقف لم يكن الاهتمام به متجهاً نحو الإفادة منه في الكشف عن المعنى بالقدر الذي تبرز أهميته في مطابقة الكلام له وفق خصوصية ما ترد فيه"[4].

[1] د. نهاد موسى، نظرية النحو العربي، د.ط، دار البشير للثقافة والعلوم، 1987، ص96.

[2] السعد التفتازاني، المطول، تحقيق الدكتور عجاج عودة برغش، د.ط، دار التقوى، دمشق – سوريا، 2018، ص268.

[3] ابن يعقوب المغربي، مواهب الفتاح، الطبعة الأولى، 2003م-1424هـ، ص125.

[4] ردة الله بن ردة بن ضيف الله الطلحي، دلالة السياق، مرجع سبق ذكره، ص94.

ولعل ما يفسر عدم وجود دراسات تنظيرية مستقلة عندهم – على الرغم من بيانهم أهمية السياق المقالي والحالي، وإدراكهم لأبعاده– هو أن وضع نظرية متكاملة لم يكن هدفهم، وإنما تأتي دراساتهم نتيجة الحاجة إلى فهم مدلولات النصوص ومقاصدها[1].

إدراك البلاغيين العرب لأهمية السياق في تحديد المعنى يعد إنجازًا معرفيًا رائدًا. فقد اعتبروا أن فهم الخطاب لا يقتصر على السياق اللغوي (المقال)، بل يتجاوز إلى سياق الحال (المقام)، وهو ما تجلى في أقوالهم مثل "لكل مقام مقال". وقد اهتموا بعلاقة السياق بالمعنى من خلال مبادئ بلاغية متعددة، مثل أهمية مطابقة الكلام لمقتضى الحال، التي أشار إليها الجرجاني في نظرية النظم. كما تباينت آراؤهم حول تأثير السياق في اختيار الألفاظ، حيث أكّدوا على ضرورة مراعاة السياق الثقافي والنفسي للمتكلم والمستمع، وهو ما أشار إليه الجاحظ والجرجاني وابن قتيبة وغيرهم. وتعتبر دراسة البلاغيين للسياق بمنزلة الأساس في تحليل النصوص، فقد اهتموا بمراعاة السياق المقالي والحالي لتوضيح المعاني وتحديد الأساليب الأنسب لتوصيل الرسائل، مما يجعل هذا المجال حجر الزاوية في البلاغة العربية.

[1] محمد عبد الله العبيدي، البحث الدلالي عند الشوكاني، د.ط، وزارة الثقافة والسياحة في صنعاء، اليمن، 2004م، ص99.

2-السياق من خلال أفق التراث النحوي العربي

كلمة "السياق" تعد من الألفاظ العربية الأصيلة التي استخدمها اللغويون والنحاة القدامى دون أن يُبلورها المصطلح الدلالي الذي نعرفه اليوم. هؤلاء القدامى كانوا يركزون على أهمية السياق في توجيه المعنى وفهم الخطاب، وكان له وظيفة واضحة في الذهن اللغوي العربي. رغم ذلك، لم يكن هناك تعريف دقيق أو تحديد اصطلاحي للسياق في تلك الفترة. إبراهيم أصبان أشار إلى أن الأصوليين والمفسرين واللغويين كانوا يعتمدون على السياق بشكل كبير في تفسير المعاني، حتى في غياب الاستخدامات اللغوية التي تدعمه. ومع ذلك، يظل تتبع مصطلح "السياق" في التراث العربي أمرًا صعبًا بسبب غياب التحديد الاصطلاحي له[1].

وفي محاولة توضيح هذه المسألة يشير الباحث ذاته إلى أن لفظ (السياق) وإن غاب عن بعض كتب القدماء واستعمالاتهم تصريحا إلا أننا " نلاحظ في بعض المؤلفات أن لفظة (السياق) تختفي ويبقى معناها حاضرا بألفاظ أخرى، مثل (الوضع) و(المواضع) و(المساق) و(الاتساق) و(سوق الكلام) و(نظم الكلام) و(مقتضى الحال) و(التاليف، وكلها بمعنى (سياق)"[2].

يشير هذا الطرح إلى أن غياب التحديد الدقيق لمفهوم "السياق" من قبل العلماء القدامى أدى إلى تباين استخداماته وتداخلها مع مفاهيم أخرى. وقد أشار الباحث فتحي علم الدين إلى أن النحاة في مرحلة تدوين النحو اعتمدوا على شواهد لغوية جزئية (أبيات أو جمل معزولة)، مما أطلق عليه "السياق الجزئي"، وتجاهلوا النصوص الكاملة مثل القرآن الكريم والحديث الشريف. ورغم مبررات هذا المنهج في تقعيد النحو

[1] إبراهيم أصبان، مقال حول السياق بين علماء الشريعة والمدارس اللغوية الحديثة، مجلة الإحياء، العدد: 25، 2007م- 1428هـ، المغرب، ص 53.

[2] إبراهيم أصبان، مقال حول السياق بين علماء الشريعة والمدارس اللغوية الحديثة، مرجع سابق، ص 53.

وضبط اللغة، إلا أن الاعتماد على السياق الجزئي قد يؤدي أحيانًا إلى فهم قاصر. وأوضح الباحث أن هذا المنهج أثر في فحص السياق بشكل محدود، مما يؤثر على الفهم اللغوي السليم[1]:

أولاً: إن مفهوم السياق بشقيه اللغوي وغير اللغوي لم يتبلور لدى النحاة في صورة نظرية متكاملة المعالم كما هو الحال في الدراسات اللسانية الحديثة، إلا أن ذلك لا ينفي وجود إشارات ذكية ومتقدمة في تراثهم، رغم كونها متناثرة وغير منظمة ضمن إطار نظري موحد.

ثانياً: اعتمد النحاة على السياق اللغوي الضيق ضمن حدود الشاهد النحوي أو التركيب اللفظي لتحديد الوظائف النحوية. وعند غياب العلامة الإعرابية، كانوا يلجؤون إلى قرائن لغوية أخرى للاستدلال على الوظيفة. رغم ذلك، فإن بعض النحاة مثل الفراء وابن السيد البطليوسي اقتربوا من المفهوم الحديث للسياق، حيث تعامل الفراء مع القرآن الكريم كنص متكامل واعتبر القراءة القرآنية جزءاً من سياقه، بينما أعاد ابن السيد البطليوسي شواهد "أدب الكاتب" إلى نصوصها الأصلية لفهمها بشكل أشمل[2].

ثالثًا: إن النحاة واللغويين القدامى كانوا على دراية بما يُعرف اليوم في الدراسات اللسانية بـ"سياق الموقف"، وقد أطلقوا عليه مصطلح "الحال" أو "الحال المشاهدة ."وقد ظهر ذلك بوضوح في تناولهم لأطراف الموقف اللغوي مثل :المتكلم، والمخاطب، وموضوع الحديث، والعلاقة المعرفية بين الطرفين، مما يجعل "دلالة الحال " عندهم قريبة جدًا من مفهوم "سياق الموقف" الحديث.

[1] ينظر: فتحي ثابت علم الدين، أثر السياق في مبنى التركيب والدلالة (دراسة نصية من القرآن الكريم)، رسالة دكتوراه، مخطوط، كلية الدراسات العربية والإسلامية، المنيا، سنة 1994، ص5- 9.

[2] محمد فؤاد بالحسن، السياق وأثره في توجيه المعنى النحوي في تفسير التحرير والتنوير للشيخ "الطاهر بن عاشور"، أطروحة مقدّمة لنيل شهادة دكتوراه علوم في اللّغة والأدب العربيّ، تخصص نحو عربي مدارسه وإتجاهاته، جامعة قاصدي مرباح – ورقلة –، 2020م/2021م-1441هـ-1442هـ، ص51.

يرى الكاتب أن معظم نتائج الباحث صحيحة، لكن ملاحظته حول حصر الاستثناء في الفراء فقط تحتاج إلى مراجعة، حيث يعتبر أن الخليل بن أحمد الفراهيدي كان من أوائل النحاة الذين استخدموا السياق اللغوي في تحليل التراكيب، كما يظهر من كتاب سيبويه. كما أبدى الخليل اهتمامًا بعناصر سياق الموقف مثل المتكلم والمخاطب. من جهة أخرى، يشير علاء عبد الأمير شهيد إلى أن مبادئ السياق ظهرت مبكرًا في التراث العربي الإسلامي وحظيت باهتمام، لكن لم يتم تطويرها إلى نظرية متكاملة تهتم بجميع عناصر السياق[1].

وحين نتتبع كتب النحاة واللغويين العرب نجد أن لهم وقفات تأملية في العديد من الظواهر التركيبية، فقد كانوا لذلك يحشدون الشواهد للظاهرة الواحدة لتتضح أسبابها وتتحقق غايتها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا وهو ما بينه الرافعي في قوله: "توسع النحاة وأهل اللغة في شواهد القرآن ونقبوا عنها واستعرضوا لها ما انتهى إليهم من كلام العرب، فلا يعرف في تاريخ العلوم اللسانية قاطبة شواهد تبلغ عدتها أو تقاربها أو تكون منها على نسبة متكافئة، فإن مبلغ ما أحصوه من شواهد القرآن فيما ذكروا

ثلاثمائة ألف بيت من الشعر"[2].

أكد النحاة العرب على ضرورة دراسة الخصائص التركيبية للأسلوب، متجاوزين الوصف التقليدي للظواهر النحوية إلى تحليلها في سياقاتها المختلفة. لقد تعاملوا مع ظواهر مثل الوقف والوصل، والتقديم والتأخير، والذكر والحذف، معتمدين على السياق اللغوي وغير اللغوي لتفسير هذه الظواهر. وقد شكّل

[1] علاء عبد الفتاح الأميري، أثر السياق في توجيه المعنى في كتاب معاني القرآن للفراء، رسالة ماجستير مخطوط، كلية الآداب – جامعة القادسية –، 2001 م–1422هـ، ص11.

[2] مصطفى صادق الرافعي، إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، دار الكتاب العربي، د ط، د ت، ص117.

اهتمامهم بمعاني الأساليب وأغراضها التواصلية الأساس الذي بني عليه تحليلهم النحوي. ومن بين أوائل من اهتموا بهذا المنهج الخليل بن أحمد وسيبويه، إلا أن النحاة المتأخرين مثل عبد القاهر الجرجاني والرضي الاستراباذي قد أضافوا المزيد من العمق والتركيز في هذا المجال[1].

أبرز سيبويه في كتابه إشارات منهجية تعكس ريادة أستاذه الخليل بن أحمد الفراهيدي في تأسيس رؤية سياقية لتحليل التراكيب النحوية، حيث اعتمد الخليل على السياق اللغوي في التحليل، إلى جانب وعيه بأثر عناصر الموقف التواصلي—كالمتكلم، والمخاطب، والعلاقة بينهما، وعلم المخاطب بالمعنى—في توجيه الدلالة النحوية. وبهذا يكون قد سبق نحاة عصره إلى منهج تحليلي يُدمج بين السياقين اللغوي والمقامي بطريقة متقدمة.

من ذلك ما ذكره سيبويه من أن الخليل في تحليله لقول الشاعر[2]: [البسيط]

إذا تَغَنَّى الحَمامُ الوُرْقُ هَيَّجَني ولو تغرَّبتُ عنها أُمَّ عَمَّارِ

قال الخليل رحمه الله: " لما قال (هيجني) عرف أنه قد كان ثُمَّ تذكُّرٌ لتَذكرةِ الحمام وتهييجه، فألقى ذلك الذي قد عُرف منه على (أم عمار)، كأنه قال: هيجني فذكرني أم عمار. ومثل ذلك أيضا قول الخليل رحمه الله، وهو قول أبي عمرو: ألا رجل إماً زيداً وإما عمرا؛ لأنه حين قال: ألا)، رجل، فهو متمن شيئا يسأله ويريده، فكأنه قال: اللهم اجعله زيداً أو عمراً، أو وفق لي زيدا أو عمراً ".[3]

[1] مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، (دراسة تداولية لظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي) دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت لبنان، ط 1، 2005، ص205.

[2] سيبويه، تح عبد السلام محمد هارون، الكتاب، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط 3، 1988، مج1، ص286.

[3] مرجع نفسه، مج2، ص62.

يفهم من كلام الخليل، أن الشاعر إنما نصب (أم عمار) بفعل دلّ عليه السياق وذلك عند توجيه النصب في قولك: انْتَهِ خيراً لك، فيقول: " نصبته؛ لأنك قد عرفت أنك إذا قلت له: (انته)، أنك تحمله على أمرٍ آخر، فلذلك انتصب، وحذفوا الفعل لكثرة استعمالهم إياه في الكلام، ولعلم المخاطب أنه محمول على أمر حين قال له: انته، فصار بدلاً من قوله: انته خيرا لك، وادخل فيما هو خير لك"[1].

يتضح من تحليل سيبويه أن الخليل بن أحمد اعتمد على السياق بشقيه: اللغوي وغير اللغوي (سياق الموقف) في بيان التراكيب ودلالاتها؛ إذ يظهر السياق اللغوي في تقدير الفعل المحذوف مثل (انته) لفهم نصب (خيرًا)، وكذلك في الوقف والفاصلة الصوتية. أما سياق الموقف، فيبرز من خلال علم المخاطب بمراد المتكلم، واعتماد الخليل على كثرة الاستعمال كتعليل دلالي لحذف الفعل. كما استخدم نية المتكلم في تفسير النصب على التعظيم والمدح، مثل قوله في (الحمد لله أهل الحمد)، مما يدل على دقة إدراكه للأبعاد التداولية والمعنوية للسياق.

وأما عناية الخليل بالعلاقة بين المتكلم والمخاطب، فتظهر في حديثه عن (قد) جوابا لمن قال : لما يفعل، إذ تقول في الجواب: قد فعل. " وزعم الخليل أن هذا الكلام لقوم ينتظرون الخبر[2]، فالمخاطب في مثل هذه الحال في حاجة إلى تأكيد الجواب، وحينئذ يكون لزاما على المتكلم أن يراعي حال المخاطب[3]، فيستخدم (قد) التي تفيد التأكيد مع الماضي.

[1] سيبويه، تح عبد السلام محمد هارون، المرجع السابق ذكره، مج2، ص62.

[2] المرجع نفسه، مج2، ص65.

[3] سيبويه، تح عبد السلام محمد هارون، المرجع السابق ذكره، مج4، ص223.

ومن أمثلة اعتماد الخليل على السياق في تحليلاته النحوية ما نجده في جوابه لسؤال تلميذه سيبويه عن قوله تعالى: ﴿حتى إذا جاءوها وفُتِحَتْ أبوابها﴾[1] وعن قوله تعالى: ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ﴾[2] ، وقوله: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ﴾[3]، فقال الخليل: "إنَّ العرب قد تترك في مثل هذا الخبر الجواب في كلامهم، لعلم المخبر لأيّ شيءٍ وضع هذا الكلام"[4].

وقد بين فضل الحذف هنا أبو على الفارسي بقوله: " قال أبو العباس: حذف الجواب في مثل هذا الموضع أفخم؛ لأن المخاطب يتوهم كل شيء، فإذا ذكر شيء بعينه حضره فهمه"[5].

إن هذه النصوص التي سقناها مما نسبه سيبويه لأستاذه الخليل من شأنها أن ترشدنا إلى أن الخليل اعتمد اعتماداً واضحا على السياق اللغوي وغير اللغوي في بيان دلالة التراكيب، وفي تقعيده النحوي على هذا نحو علمي دقيق، كما أنها تحملنا على القول بأنه من الطبيعي أن يستفيد النحاة من بعده بهذه النظرات الثاقبة، وهو ما سيظهر بجلاء من خلال الأمثلة اللاحقة.

وأما إشارة سيبويه إلى ضرورة مراعاة المقام أي ضرورة مراعاة السياق الخارجي عند الكشف عن المعنى العام للجملة فتظهر في قوله: "لعل الأول وصل إليه علم لم يصل إلى الآخر"[6]، إذا فمعرفة الأول بأمور هي من خارج النص يجهلها الآخر تشكل_ في نظر سيبويه_ عاملا مساعدا ومهما في إدراك معنى النص، ويؤكد ذلك في تفسيره مقولة العرب " أتميميا مرة وقيسيا أخرى؟" وفسر ذلك بقوله: "وإنما هذا أنك رأيت

[1] القرآن الكريم، سورة الزمر.الآية 73، ص 466.
[2] القرآن الكريم، سورة البقرة الآية165، ص25.
[3] القرآن الكريم، الأنعام الآية27، ص130.
[4] سيبويه، تح عبد السلام محمد هارون، المرجع السابق ذكره، مج3، ص103.
[5] سيبويه تح العوض القوزي، التعليقة على كتاب، ط1، 1992، مج 2، ص211.
[6] سيبويه تح العوض القوزي، التعليقة على كتاب، المرجع السابق، مج 2، ص130.

رجلا في حال تلون وتنقل فكأنك قلت: أتتحول تميميا مرة وقيسيا أخرى، فأنت في هذه الحال تعمل في تثبيت هذا له، وهو عندك في تلك الحال في تلون وتنقل، وليس يسأله مسترشدا عن أمر هو جاهل به ليفهمه إياه ويخبره عنه، ولكنه وبخه بذلك"[1].

إنَّ هذا القول من سيبويه ليدل دلالة واضحة على استناده في فهمه تلك العبارة إلى وجوب المعرفة بحال المخاطب، أو بعبارة أخرى معرفة ما يتصوره المتكلم من حال المخاطب، وقد يتعدى الأمر المخاطب الفرد إلى ما يستقر في أذهان المخاطبين جميعا أي إلى حال الجماعة بأسرها، وفي هذا يقول سيبويه:

وسألت الخليل عن قوله جل ذكره: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ﴾[2]، فقال: "إن العرب قد تترك في مثل هذا الخبر الجواب في كلامهم لعلم المخبر (المخاطب) لأي شيء وضع هذا الكلام"[3].

وهذا المنهج ذاته هو الذي اعتمده سيبويه في أقدم كتاب في النحو وصل إلينا؛ فحين نقف على تحليلاته وقفة إمعان وتبصر، نجد أنه يهتم بكل ما يحيط بالنص من ظروف وملابسات سواء منها ما يختص بحال المتكلم أو المخاطب أو المشاركين في الحدث اللغوي، مكتفياً في كلامه عن كل ذلك بالوصف دون التسمية. نجد ذلك مثلا في وقفة له عند بيت امرئ القيس: [الطويل]

البيت الشعري المشار إليه في النص هو:

فَلَوْ أَنَّ مَا أَسْعَى لِأَدْنَى مَعِيشَةٍ كَفَانِي وَلَمْ أَطْلُبْ قَلِيلٌ مِنَ المَالِ

[1] سيبويه تح العوض القوزي، التعليقة على كتاب، المرجع السابق، مج 2، ص130.

[2] القرآن الكريم،سورة الزمر الآية 73،ص 466.

[3] سيبويه تح العوض القوزي، المرجع السابق ذكره، مج2، ص13.

حيث استشهد سيبويه بهذا البيت لتوضيح أثر السياق الدلالي في توجيه الإعراب، مُبرِزًا كيف أن اختيار الرفع (قليلٌ) بدلًا من النصب (قليلًا) تحكَّم فيه المعنى المقصود في القصيدة، وهو أن "القليل" لم يكن مطلوبًا لذاته، وإنما كان الملك (المراد به الكفاية) هو الغاية، فاستدعى السياق رفعَ "قليلٌ" لفظًا تقديرًا، مع حذف الفاعل في الفعل الأول (أطلبُ) ضميرًا مستترًا[1].

ويشير سيبويه إلى أن المتكلم يحذف جزءاً من كلامه، إذا ظهر للمخاطب مما سبق من كلام المتكلم ما يدل على هذا المحذوف، ومثال ذلك ما جاء في قوله: "من كذب كان شراً له يريد كان الكذب شراً له إلا أنه استغنى بأن المخاطب قد علم أنه الكذب لقوله (كذب) في أول حديثه"[2].

ومنها تلك المعالجات التي تحدث فيها إمام النحاة سيبويه عن ظاهرة الحذف، حيث قال في (باب ما يُنصب على إضمار الفعل المستعمل إظهاره): "ومما ينتصب على إضمار الفعل المستعمل إظهاره قول العرب حدث فلان بكذا وكذا، فتقول: صادقا والله أو أنشدك شعرا فتقول: صادقا والله أي: قاله صادقا؛ لأنك إذا أنشدك فأنه قد قال كذا"[3]، فقد أجاز سيبويه حذف (قاله) في الكلام والاكتفاء بعبارة «صادقا والله» "اعتمادا على الجزء الأول منها "حدث فلان..." انطلاقا من أن الكلام وحدة لا تتجزأ يكمل بعضها بعضا.

في هذا النص، يناقش سيبويه مسألة الحذف في اللغة العربية وكيفية استجابة المجيب للسؤال بناءً على سياقه. يشير إلى أن المجيب يجب أن يراعي نوع السؤال في تحديد صيغة الجواب، فمثلاً إذا سئل عن فاعل يجب أن يكون الجواب مرفوعًا، وإذا سئل عن مفعول به يكون الجواب منصوبًا. كما يوضح من خلال

[1] سيبويه تح العوض القوزي، التعليقة على كتاب، المرجع السابق، مج 2، ص79.
[2] سيبويه تح العوض القوزي، التعليقة على كتاب، المرجع نفسه، مج 2، ص297.
[3] سيبويه تح العوض القوزي، التعليقة على كتاب، المرجع السابق، مج1، ص271.

الأمثلة أن الحذف يتم بناءً على السياق، حيث يمكن إلغاء بعض الكلمات إذا كان المعنى واضحًا من السياق[1]، يبرز سيبويه أهمية السياق في تحديد دلالة الخطاب وصحة تأويله، مما يعكس رؤيته الاجتماعية للغة التي تعتمد على التفاعل بين المتكلم والمخاطب. ويشدد على أن تحقق الفائدة من الخطاب يتطلب حضور سياق مشترك بين الطرفين. بناءً على ذلك، لكل تركيب لغوي غاية تداولية، ولكل صيغة لفظية وظيفة إبلاغية تحددها ملابسات المقام وأهداف المتكلم[2].

ويعالج سيبويه تراكيب لغوية عديدة خارجة عن الأصول النحوية المتعارف عليها، ويجد لها من سياق الحال ما يسوغ هذا الخروج؛ فمن المعروف أن الاسم لا يظهر بعد الإضمار، فلا يجوز أن تقول لرجل من إخوانك ومعرفتك: أنا عبد الله منطلقاً إلى حاجتك. ولكن سيبويه يذكر أن سياق حال المتكلم يسوغ هذا الخروج كما يقول: إني عبد الله، مصغراً نفسه لربه[3].

اعتمد سيبويه في معالجته لقضايا الذكر والحذف على ربط الحدث الكلامي بسياقه وظروفه، مما أتاح له استنباط مقاصد المتكلم وكشف دلالات الخطاب. لم يقتصر عمله على القواعد الشكلية بل توسع إلى تحليل الأساليب والتراكيب وفقًا لسياقاتها المتنوعة. هذا المنهج أسهم في تطوير آليات التأويل وفهم المقاصد، خصوصًا في الخطاب الشرعي.

إنَّ السياق الخارجي لا يتعلق بالمخاطب فقط كما في النص الأول أو المخاطبين كما في النص الثاني، بل قد يتعلق أيضا بالمتكلم وبطريقة أدائه للكلام. وهذا الأمر يوضحه ابن جني (ت 392هـ) في تعقيبه

[1] المرجع نفسه، مج1، ص93-94.

[2] مسعود صحراوي، التداولية عند العلماء العرب، الطبعة الأولى، دار الطليعة في بيروت، لبنان، 2005، ص192.

[3] سيبويه، تح عبد السلام محمد هارون، الكتاب، المرجع السابق، مج02، ص80-141.

على قول سيبويه: "سير عليه ليل"[1]، حيث قال ابن جني: "وهم يريدون سِير عليه ليل طويل أنه إنما حذفت الصفة لما دل من الحال على موضعها وذلك أنك تحس في كلام القائل لذلك من التطويح والتطريح والتفخيم والتعظيم ما يقوم مقام قوله طويل أو نحو ذلك "[2]، ابن جني يوضح أهمية العناصر الأدائية في تأكيد المعنى وتوضيحه، حيث يربط تأثير الصوت والتعبير بالكلمات في تعزيز المدح أو الذم. فمثلاً، استخدام لفظ الجلالة في مدح شخص يزيد من قوة التأثير، كما أن تمطيط الصوت وتفخيم الكلمات مثل "إنساناً" يعبر عن الصفات دون الحاجة لإضافات وصفية أخرى. هذا يدل على أن الأداء الصوتي للكلام يمكن أن يغني عن بعض الأوصاف اللفظية المباشرة[3].

يتجاوز السياق الخارجي طرفي الخطاب (المتكلم والسامع) ليشمل الظروف المحيطة بأداء الكلام، كالغرض من القول والبيئة الثقافية التي وقع فيها، وهو ما يُعرف اليوم بالسياق الثقافي .وقد نبّه الجاحظ إلى أهمية هذا النوع من السياق في الحفاظ على المعنى والمتعة في الخطاب، حيث شدد على ضرورة نقل الكلام كما قيل بلهجته وأسلوبه دون تزيين أو تغيير، لأن ذلك يغيّر دلالته ويُفقده أثره الأصلي[4].

ومرد ذلك عند الجاحظ إلى أن شرف المعاني أو وضاعتها ليس بكونها من كلام الخاصة من الناس أو من كلام العامة منهم، وإنما هو بمقدار ملاءمته وموافقته للمقام أو سياق الحال، ويظهر ذلك بشكل أكثر جلاء ووضوحا فيما نقله عن بشر بن المعتمر حين قال: "المعنى ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة،

[1] ينظر: عبارة سيبويه في الكتاب، مج 2، ص 213.

[2] ابن جني، تح: عبد الحميد هنداوي، الخصائص، دار الكتب العلمية بيروت، ط 2، 2003م-1424هـ، مج 2، ص270.

[3] ابن جني، تح: عبد الحميد هنداوي، الخصائص، المرجع نفسه، مج2، ص270.

[4] الجاحظ، تح عبد السلام هارون، البيان والتبيين، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط 4، مج1، 1975م، ص 146.

وكذلك ليس يتضح بأن يكون من معاني العامة، وإنما مدار الشرف على الصواب وإحراز المنفعة مع موافقة الحال، وما يجب لكل مقام من المقال"[1].

من هنا نرى أن السياق يؤدي في أحيان كثيرة دورا كبيرا في تحديد الدلالة المقصودة من الكلمة في جملتها التي وردت فيها، ويحسن بنا أن نذكر في هذا المقام _كما بينا سابقا إشارة العلماء إلى أهمية السياق أو المقام واقتضائه مقالا مخصوصا يلائمه في عبارتهم الموجزة الدقيقة الدالة لكل مقام مقال). فالسياق متضمن داخل التعبير المنطوق بطريقة ما[2]، ومن ثم تعامل النحاة مع اللغة المنطوقة، وتعرّضوا للعلاقة بين المتكلم وما أراده من معنى والمخاطب وما فهمه من الرسالة والأحوال المحيطة بالحدث الكلامي.

فالكلمة لا معنى لها خارج السياق، وقد يتحد المدلول وتختلف المعاني تبعا للسياق الذي قيلت فيه العبارة أو لأحوال المتكلمين والزمان والمكان الذي قيلت فيه[3].

يشير الجاحظ إلى أن الهدف من الكلام هو التأثير في نفس السامع وإثارة مشاعره، مع التأكيد على ضرورة ملاءمة الكلام للسياق، وهو ما يتجلى في قاعدة "لكل مقام مقالا". من جهة أخرى، يظهر المبرد وعيًا عميقًا بأهمية السياق في التحليل النحوي، حيث يبين أن الظروف المحيطة بالحدث الكلامي قد تفسر المعنى دون الحاجة لذكر بعض أجزاء الجملة، مثل حذف المبتدأ في جمل معينة[4].

وبعد المبرد نجد أنفسنا أمام شخصية كانت لها نظرات ثاقبة صائبة في مجال التحليل اللغوي، سبق بها صاحبها رواد الدراسات السياقية الحديثة، ومنهم (**فيرث**) بنحو أربعة عشر قرنا، ذلكم هو ابن جني؛

---

[1] المصدر السابق، مج 1، ص136.

[2] ينظر محمد حماسة عبد اللطيف، النحو والدلالة، (مدخل لدراسة المعنى النحوي الدلالي)، دار غريب، القاهرة، ط 1، 1983م-1403هـ، ص 98.

[3] المصدر السابق، ص 33 36.

[4] أبو العباس محمد بن اليزيد، المقتضب، المبرد، تحقيق محمد عبد الخالق عظيمة، عالم الكتب، بيروت، د ط، د ت، مج4، ص 129، وينظر: الكتاب، مج 1، ص129-148.

فالقراءة المتأنية في صفحات كتابه المتميز (الخصائص) وتحديدا في الباب الذي عقده، بعنوان: (باب في أن العرب أرادت من العلل والأغراض ما نسبناه إليها، وحملناه عليها[1]، هذه القراءة ستظهر لنا أن ابن جني كان رائداً في مجال التحليل السياقي؛ فقد اهتم بسياق الحال وتحليل الحدث الكلامي بمستوياته الثلاث: الصوتي والصرفي والنحوي، وصولا بها إلى المستوى الرابع أي الدلالي، مما يدل على وعي ابن جني الكبير بسياق الموقف الكلامي ودوره في الوصول إلى المراد من الخطاب، فإننا حين نقرأ كلامه نجد أنه قد اتبع منهجا وصفيا بحتا في تناوله أثر السياق في الدلالة على المعنى العام، أوما يسمى بالمعنى الدلالي الذي يشمل عنصري المقال والمقام معا موضحا تأثير عنصر المقام الخارجي عند تحليله معنى قول الشاعر نعيم بن الحارث بن يزيد السعدي[2]: تقول ــ وصكت وجهها بيمينها ــ أبعلي هذا بالرحى المتقاعس حيث قال في تحليله لهذا البيت وتعليقه على مقصود الشاعر : " فلو قال الشاعر حاكياً عنها:

"أَبَعْلِي هٰذَا بِالرَّحى المُتَقاعِسِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَذْكُرَ صَكَّ الوَجْهِ"

لأعلمنا بذلك أنها كانت متعجبة منكرة، ولكنه لما حكى الحال فقال: (وصكت وجهها) علم بذلك قوة إنكارها وتعاظم الصورة لها. هذا مع أنك سامع لحكاية الحال، غير مشاهد لها، ولو شاهدتها لكنت بها أعرف، ولعظم الحال في نفس تلك المرأة أبين. وقد قيل: (ليس المخبر كالمعاين)، ولو لم ينقل إلينا هذا الشاعر حال هذه المرأة بقوله: (وصكت وجهها)، لم نعرف به حقيقة تعاظم الأمر لها[3].

فهنا نجد إشارة من ابن جني إلى جانبي المعنى، وهما: المقال والمقام، حيث أشار إلى المقال بقوله: (أبعلي هذا بالرحى المتقاعس). وأشار إلى المقام الحدث غير الكلامي) بما قاله: (وصكت وجهها بيمينها).

---

[1] أبو الفتح عثمان بن جني، مح: محمد علي النجار، الخصائص، مج1، 1952م، ص 239–253.

[2] المصدر نفسه، مج1، ص247.

[3] أبو الفتح عثمان بن جني، مح: محمد علي النجار، الخصائص، مج1، المرجع السابق، ص245-246.

وقد تنبه ابن جني إلى مشكلة هامة تعترض تطبيق هذه النظرية لخصها في قوله:" ليس كل حكاية تروى لنا، ولا خبر ينقل إلينا يشفع به شرح الأحوال التابعة له المقترنة به"[1]. يؤكد النص على أن الفهم الكامل لا يتحقق إلا من خلال تجربة حية ومباشرة، حيث لا يوازي السماع أو الإخبار عن شيء بعيدًا عن مشاهدته الفائدة التي تتحقق من التفاعل المباشر. يُستشهد بالأشخاص الذين يدركون الأمور عبر مشاهدتها كدليل على ذلك، مقارنة بما يحصل من مجرد سماع الشعر أو الأخبار. كما يبرز النص أهمية التواصل الفعّال الذي يستلزم التفاعل المباشر بين الأفراد لتحقيق الفهم الكامل.[2]. وبهذا يكون ابن جني قد قسم الكلام باعتبار المقام أو الأحوال المصاحبة للأداء إلى ثلاثة أقسام[3]:

1. **النوع الأول**: هو المشهد الذي نعايش فيه ظروف الأداء والأحوال، حيث تكون مشاهدة هذه الظروف أساسية لفهم المعنى، وهو أمر لا يمكن تحصيله من الأكابر العلماء إذا غابت عنهم هذه الظروف.
2. **النوع الثاني**: هو الكلام المشفوع برواية الحال، وهو يُمثّل منزلة وسطى بين النوعين الأول والثالث، حيث يُعزز المعنى بالكلام المصاحب للرؤية المباشرة للأحوال.
3. **النوع الثالث**: هو الكلام المنقول لنا مقطوعًا عن سياقه ومجردًا من ذكر أحواله وأسبابه، وهذا هو أكثر الأنواع عرضة للخطأ وسوء الفهم، خصوصًا عند اعتماد الباحث اللغوي على النص فقط دون

[1] المصدر نفسه، مج1، ص2045.

[2] أبو الفتح عثمان بن جني، مح: محمد علي النجار، الخصائص، مج1، المرجع السابق، ص247.

[3] المصدر نفسه، مج1، ص248.

النظر إلى الظروف المحيطة به. وقد ذكر ابن جني مثالًا على ذلك بما ورد من قولهم "رفع عقيرته"، محذرًا من الاعتماد على المقال وحده دون النظر إلى أسبابه وسياقه[1].

ثم ذكر السياق الذي ينبغي أن تفهم في ضوئه هذه العبارة قائلا: "إنما هو أن رجلا قطعت إحدى رجليه فرفعها ووضعها على الأخرى، ثم نادى وصرخ بأغلى صوته، فقال الناس: رفع عقيرته، أي رجله المعقورة. قال أبو بكر: فقال أبو إسحاق: "لست أدفع هذا"[2].

يرى ابن جني أن فهم مقاصد العرب في كلامهم يقوم على عنصرين متكاملين: الحاضر، ويتمثل في ملاحظة أحوال المتكلمين أثناء حديثهم، والغائب، ويعتمد على ما نقله العلماء من أوصاف لحالات العرب النفسية والاجتماعية. هذان العنصران يتيحان للسامع أو القارئ استبيان المعاني الخفية خلف الكلام. بذلك، يؤكد ابن جني على أهمية السياق والمرجعية في تفسير اللغة[3].

وفي كلام ابن جني هذا إشارة إلى سياق الحال ودور الحدث غير الكلامي للمشتركين، بل إن كلامه كان أكثر وضوحاً وعمقاً حين قال: (الأحوال الشاهدة بالقصود بل الحالفة على ما في النفوس)، فكأن هذه التصرفات التي تبدو، والملامح التي تتشكل على الوجه تصور ما في النفس تصويراً لا شك فيه، حتى لكأنها شاهد حي على صدق قوله فلا يترك شبهه على ما يقول.

وأما فيما يتعلق بالظروف المحيطة بالكلام والملابسات المصاحبة له، ومالها من دور في فهم المعنى، فيورد ابن جني قول الشاعر وليد بن عقبة:

قلنا لها قفي لنا فقالت: قافِ*

[1] أبو الفتح عثمان بن جني، مح: محمد علي النجار، مج1، ص248.

[2] المصدر نفسه، ص248.

[3] أبو الفتح عثمان بن جني، مح: محمد علي النجار، الخصائص، مج1، المصدر السابق، ص245.

يرى المحلل أن الشاعر لو أضاف مشهداً آخر من حال المرأة كإمساكها بزمام بعيرها أو توقفها المفاجئ، لكان ذلك أوضح في بيان نيتها بالتوقف الفعلي لا الاستهزاء. ويُفهم من تحليل القول أن التعبير "قالت قاف" قد يُفسَّر على أنه استجابة فعلية لطلب الوقوف، وليس سخرية منه كما قد يُظن. وهذا يدل على أهمية فهم القرائن والسياق لاستنباط المقصود الحقيقي عند العرب في تعبيراتهم ومواقفهم[1]، ويبرز ابن جني أهمية المشاهدة في فهم اللغة، مؤكداً على أن الأفعال غير الكلامية مثل إمساك البعير يمكن أن تكون قرينة تكشف عن المقصود وتزيل الإبهام. يرى أن مشاهدته لوجوه العرب وأحوالهم، بالإضافة إلى الظروف المحيطة بالكلام، توفر معلومات لا يمكن أن تنقلها الحكايات أو الروايات. ويشير إلى أن العلماء الذين كانوا شاهدين على أحوال العرب في حديثهم يمكنهم استنباط أغراضهم ومراميهم بشكل أدق، حتى لو كانت تلك الإشارات غير قابلة للترجمة في كلمات. بهذا، يصبح ما غاب عنهم من خلال النقل كأنه حاضر معهم، مما يعينهم على إدراك معاني اللغة بشكل أعمق[2].

وفي هذا الصدد يمكن أن تسعفنا رؤية "**عواطف كنوش**" في تحديد طريقة ابن جني في تناوله دلالة السياق حين حددت ذلك في النقاط الأربعة الآتية[3]:

1) تناوله التركيب الكلي للكلام.
2) وضع الكلمة في التركيب.
3) الحال المشاهدة.
4) المعتقدات الدينية.

[1] المصدر سابق، ص246.

[2] أبو الفتح عثمان بن جني، مح: محمد علي النجار، الخصائص، مج1، المصدر السابق، مج1، ص148.

[3] ينظر: عواطف كنوش مصطفى، الدلالة السياقية عند اللغويين دار السياب النشر والتوزيع، لندن، ط1، 2007، ص122 و123.

إن ما سقناه من نصوص سابقة من كلام ابن جني وما عرضناه من إشاراته السالف ذكرها لسياق الحال، كل ذلك وغيره من شأنه أن يقف دليلا على نظرة هذا العالم الثاقبة ووعيه الفذ بأهمية مراعاة السياق الاجتماعي في عملية التحليل اللغوي، ودوره في استكناه المعنى قبل أن تظهر نظرية فيرث السياقية بقرون.

وتحدث ابن يعيش عن دور القرينة في بيان المعنى فقال: "المراد من اللفظ الدلالة على المعنى، فإذا ظهر المعنى بقرينة حالية أو غيرها لم يحتج إلى اللفظ المطابق"[1].

ويبين أثر القرينة في حصول الفائدة في الجملة الاسمية بقوله: " واعلم أن المبتدأ والخبر جملة مفيدة تحصل الفائدة بمجموعهما، فالمبتدأ معتمد الفائدة، والخبر محل الفائدة، فلا بد منهما إلا أنه قد توجد قرينة لفظية أو حالية تغني عن النطق بأحدهما فيحذف لدلالتها عليه؛ لأن الألفاظ إنما جيء بها للدلالة على المعنى؛ فإذا فهم المعنى بدون اللفظ جاز ألا يؤتى به، ويكون مرادا حكما وتقديرا"[2]. يشير كمال بشر إلى أن النحاة كانوا يدركون أن المعنى هو الأصل في دراسة اللغة، وأن الإعراب مجرد فرع منه. لقد نظروا إلى اللغة كنشاط إنساني مرتبط بالمجتمع والظروف المحيطة، وليس مجرد بنية لغوية مجردة. كما كانوا واعين بأهمية السياق والمقام في تحديد وظيفة الكلام ومعناه، رغم أنهم لم يقرروه نظريًا بشكل صريح[3].

ويعضض هذا أن " النحاة نظروا إلى النحو من خلال السياق وبنوا تقسيمات النحو على أساس العناصر المكونة للتحليل السياقي[4]، والذي يدل على صحة هذا القول إنهم حين نظروا في اختلاف أحوال الكلمات في التركيب وجدناهم" يرصدون خصائص هذه الكلمات في السياق فرأوا للكلمة بنية، ورأوا

[1] ابن يعيش موفق الدين يعيش بن علي بن يعيش، شرح المفصل، تح: إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت، د ط: 2001 م-1422هـ، مج1، ص248.

[2] ابن يعيش موفق الدين يعيش بن علي بن يعيش، شرح المفصل، تح: إميل بديع يعقوب، المصدر السابق، مج1، ص94.

[3] كمال بشر، علم اللغة الاجتماعي، دار الثقافة العربية، د ط، سنة 1994، ص52.

[4] عواطف كنوش المصطفى، الدلالة السياقية عند اللغويين، المرجع السابق ذكره، ص123.

لمكانها في الجملة رتبة. ورأوا في علاقتها مع رصيفاتها في الجملة ربطا، ومطابقة، ولمحوا بين الكلمتين في نطاق الجملة علاقة خاصة أقوى بينهما مما تكون بين أحداهما وبقية عناصر الجملة فجعلوا هذه الأمور جميعا مسارب لتفكيرهم النحوي"[1].

السياق في التراث النحوي العربي كان مفهوماً أساسياً تناوله النحاة دون تحديده كمصطلح دلالي محدد. ورغم غياب تعريف دقيق له، كان يُفهم عبر ألفاظ مثل "الوضع" و"المواضع". اعتمد النحاة على السياق الجزئي في تحليل التراكيب، مما أدي أحيانًا إلى نقص في الفهم الكامل. ووفقًا للباحثين مثل فتحي علم الدين، لم يطور النحاة مفهوم السياق كإطار نظري شامل، لكنه كان موجودًا ضمنيًا في أعمالهم. وأكد الخليل بن أحمد وسيبويه أهمية السياق في تفسير الظواهر النحوية استنادًا إلى السياق المعرفي والمقام.

[1] المرجع نفسه، ص103.

3-السياق من خلال أفق أصول الفقه

سار الأصوليون على خطى علماء اللغة في استنباط المعاني من السياق، إذ تتغير دلالة التراكيب باختلاف الأساليب. وللمتكلم حرية استعمال الألفاظ بصيغها الحقيقية أو المجازية، الصريحة أو الكنائية، بحسب المقام. كما أن الصيغ العامة كألفاظ العموم وصيغة الأمر قد تُستخدم في معانٍ متعددة، يحددها السياق كالوجوب أو الإرشاد أو التهديد[1].

ويشمل ذلك كلمات وأساليب أخرى، إذ "المجمل والمجاز والمنقول عن وضعه، والمنقول بتصرف الشرع، والعام المحتمل للخصوص، والظاهر المحتمل للتأويل، ونسخ الحكم بعد استقراره، ومعنى قول (افعل) أنّه للندب أو الوجوب، أو أنه على الفور أو التراخي، أو أنه للتكرار أو المرة الواحدة، والجمل المعطوفة إذا أعقبت باستثناء، وما يجري مجراه مما يتعارض فيه الاحتمال"[2].

وبهذا يظهر أنه قد سببت حرية الوضع والاستعمال كثرة الاحتمال في النصوص والعبارات، مما يدعو لبحث كيفية فهم الخطاب، وتحديد المعنى في ضوء هذا الإشكال. وهذا ما بحثه الأصوليون وغيرهم في العناصر السياقية والمقامية التي لها أكبر الأثر في الكشف عن المعنى، ذلك أن هدف الأصوليين "معرفة كيفية اقتباس الأحكام من الأدلة"[3].

والملاحظ أنّ عناية الأصوليين بمبحث السياق كانت كبيرة، إذ نجدهم يستندون إليه في تحديد الكثير من لالات الألفاظ، لا سيما في النص القرآني، فالسياق يزيل الإبهام عن المجمل، ويوضّح تخصيص العام، وتقييد المطلَق، وهو الذي يحدّد الدلالة المقصودة عند تنوّع دلالات الألفاظ، وهو من أعظم القرائن الدالة

[1] ينظر: السبكي، جمع الجوامع، تحقيق: محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح أبو غدة، دار المنهاج، ط1، جدة، 2006م-1411هـ، ص372.
[2] الإمام الغزالي، المستصفى في علم الأصول، دار الكتب العلمية – بيروت، طبعة 02، 1993، ص02-15.
[3] الإمام الغزالي، المستصفى في علم الأصول، المرجع السابق، ص02-15.

على مراد المتكلّم. يقول ابن دقيق العيد المصري (703هـ): "أمّا السياق والقرائن فإنها الدالة على مراد المتكلّم من كلامه"[1].

إنّ معنى الكلمة يتم تعديله وفقاً لتعدّد السياقات التي تقع فيها الكلمة، فتكون الكلمة فصيحة بملاءمتها لجاراتها، وتعلّقها بأقرانها، وارتباطها بهم عضوياً في نظم بديع لا ترضى به بديلاً. وهذا التعلّق والارتباط يسهم في إيضاح المعنى، ذلك لأنّ "السياق هو الذي يفرض قيمة واحدة بعينها على الكلمة بالرغم من المعاني المتعددة التي في وسعها أن تدلّ عليها. والسياق أيضاً هو الذي يخلق لها قيمة حضورية[2].

وبحث السياق مكمّل لما يبحثه الأصوليون من حقيقة الخطاب وأقسامه ومضمونه وموضوعه وعناصره اللغوية في الوضع والاستعمال والنظم والوضوح والخفاء، أو يقال: إن ذلك يشمل ما بحثوه "من أول وضع الواضع الى آخر فهم السامع"[3].

ومن موضوعات البحث الأصولي أيضاً البحث في الدلالة المفردة والتركيبية للكلمات، ذلك أن لوضع الكلمة دلالة هي الأساسية أو دلالة مادتها، ما عدا دلالة صوتها وصيغتها. وكذلك لها دلالة أخرى ثانوية، هي الدلالة الاجتماعية أو السياقية المتأتية من الاستعمال المتداول[4].

تناول الأصوليون السياق اللفظي والاجتماعي بعمق، مبرزين أثره في تحديد المعنى، وتفوقوا بذلك على البلاغيين وامتازوا عن المفسرين في منهجية البحث. وقد انطلقوا من أن اللغة ظاهرة اجتماعية نشأت

[1] ابن دقيق العيد المصري، إحكام الأحكام، دار الكتاب العربي – بيروت، طبعة 02، 1993م، ص225.

[2] فندريس، اللغة، ترجمة: الدكتور أحمد الضامن، دار الكتب العلمية – بيروت، 1997م، ص231.

[3] المولي ملا خسرو، مرآة الأصول شرح مرقاة الوصول، **ترجمة** :الدكتور أحمد الضامن، دار الكتب العلمية – بيروت، 1997م، الطبعة الأولى ص34.

[4] ينظر: إبراهيم أنيس، دلالة الألفاظ، دار الأندلس، بيروت، الطبعة الخامسة، 1972م، ص48.

للتفاهم، معبرين عن ذلك بمصطلح "سبب الوضع". وأكدوا أن العلاقة بين اللفظ والمعنى علاقة عرفية اعتباطية، وأن اللغة أرقى نظام للعلامات التعبيرية[1].

وقد امتلأت كتب الأصول بدراسات معمقة حول أثر السياق في توجيه الدلالة، حيث تناول الأصوليون قضايا كدلالة الأمر، وتخصيص العام، وتقييد المطلق، وغير ذلك مما يرتبط بعلم المعاني. وقد أبرزوا أن الألفاظ لا تُفهم على إطلاقها، بل تتأثر بالسياقات اللفظية والمقامية. ويتجلى ذلك بوضوح في بحثهم للفظ العام، الذي قد لا يُراد به العموم بحسب مقتضى الحال والاستعمال البياني[2].

وهناك نصوص صريحة تدلّ على إدراكهم للسياق بأنواعه، ودوره في الكشف عن المعنى بشكل دقيق، وإدراكهم لعناصره اللغوية والاجتماعية. فيتحدث الإمام الغزالي (505هـ) عن الوسائل المعينة على فهم الخطاب الشرعي من أن "طريق فهم المراد تقدم المعرفة بوضع اللغة التي بها المخاطبة، ثم إن كان نصاً لا يحتمل كفى معرفة اللغة، وإن تطرق إليه الاحتمال فلا يعرف المراد منه حقيقة إلا بانضمام قرينة إلى اللفظ. والقرينة إما لفظ مكشوف كقوله تعالى: ﴿وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ﴾[3]، والحق العُشْر.

وإما إحالة على دليل العقل، كقوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾[4]. وإما قرائن أحوال من إشارات ورموز وحركات وسوابق ولواحق لا تدخل تحت الحصر والتخمين، يختص بإدراكها المشاهد لها، فينقلها المشاهدون من الصحابة إلى التابعين بألفاظ صريحة، أو مع قرائن من ذلك الجنس أو من جنس

[1] ينظر: سيف الدين الآمدي، الإحكام في أصول الأحكام، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى، 2003، ص104.

[2] الشاطبي، الموافقات، 271/3. وينظر: د. طاهر حمودة، دراسة المعنى، ص226.

[3] القرآن الكريم ،سورة الأنعام: آية رقم 141،ص128.

[4] القرآن الكريم سورة الزمر: آية رقم 67،ص458.

آخر. حتى توجب علماً ضرورياً يفهم المراد، أو توجب ظناً... فكل ما ليس له عبارة موصوفة فتتعيّن فيه القرائن"[1].

أما عند منكري صيغتي العموم والأمر فيتعين تعريف الأمر والاستغراق بالقرائن؛ لأنه قد تكون للأمر عادة مع المأمور، فالوجوب والندب إنما يفهم بالقرائن[2].

وبهذا يتضّح أنّ السياق يشمل القرائن اللغوية وغير اللغوية كافة، للإسهام في عملية الفهم. وقد توخى الأصوليون توجيه الدلالة الثانية للألفاظ، والتي حددها عبد القاهر الجرجاني بدلالة النَّظْم، فأرادوا توجيهها بما يتفق وقصد الشارع[3].

نظراً لأن علاقة اللفظ بالمعنى عرفية اعتباطية، وأنَّ الدلالة الحقيقية تابعة لقصد المتكلم، فإنه يرتبط ببحث السياق مسألة مهمة جداً، هي قصدية المتكلم المرتبطة هي الأخرى بعلاقة اللفظ بالمعنى. ولعله من المناسب تناولها عند بحث مسألة توخي الأصوليين لقصد الشارع والذي لا يتحدد إلا بالقرائن؛ لأن " دلالات الالفاظ ليست لذواتها، بل هي تابعة لقصد المتكلم وإرادته"[4]. ينبغي أن يكون الكلام هادفًا وواعيًا لينتج دلالة حقيقية، إذ لا يكفي مجرد معرفة المواضعة اللغوية بل يجب توجيه القصد نحو استعمالها الفعلي. ويتعلق هذا القصد بثلاثة عناصر متكاملة: هوية المتكلم التي تحدد خلفيته ومقاصده، والمتلقون الذين يُوجَّه

[1] الغزالي، المستصفى، ص298. وينظر: د. طاهر حمودة، دراسة المعنى، ص229-230.

[2] المرجع نفسه.

[3] ينظر: د. أحمد عبد الغفار، التصور اللغوي عند الأصوليين، شركة مكتبات عكاظ للنشر والتوزيع، جدة، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، 1981م، ص112.

[4] الآمدي، إحكام الأحكام، مرجع سابق، ص18.

إليهم الخطاب، ثم النص ذاته بوصفه حاملاً لتجارب المرسِل وتصوراته. فالدلالة لا تنشأ من اللغة وحدها، بل من التفاعل بين هذه العناصر الثلاثة[1].

ولإدراكهم أهمية قصد المتكلم (المرْسِل للنص) فقد توجهوا إلى معرفة قصد صاحب النص. ومن ذلك استدلالهم على فساد البيع وقت النداء لصلاة الجمعة في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِن يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ۚ﴾ [2]، "مع أن المقصود: إيجاب السعي، لا بيان فساد البيع"[3]. وهذه دلالة بالمعنى التبعي المأخوذ من المعنى التركيبي، مع مراعاة قصد الشارع.

فلمعرفة قصد الخطاب تأثير كبير في توجيه الدلالة وتحديدها، على الرغم من اختلاف صورة اللفظ، حتى إنه قد ورد قوله تعالى: ﴿وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ﴾[4].

مما لا يؤثر تفاوتاً في فهم الخطاب. وذلك مشهور عند العرب، فقد حكى ابن جني عن بعضهم: " قال: سمعت ذا الرمة ينشد[5]:

وَظاهِرْ لَها مِن يابِسِ الشَّحْتِ واستَعِنْ عَلَيْها الصَّبا وَاجْعَلْ يَدَيْكَ لَها سِتْرَا

فقلتُ: أنشدتني: من بائس. فقال: يابس وبائس واحد. فأنت ترى ذا الرمة لم يعبأ بالاختلاف بين البؤس واليبس، لما كان معنى البيت قائماً على الوجهين، وصواباً على كلتا الطريقتين ...، يعني بحسب قصد

[1] ينظر: على حاتم، البحث الدلالي عند المعتزلة، أطروحة دكتوراه في فلسفة في اللغة العربية وآدابها، الجامعة المستنصرية، بغداد، العراق، 1999م، ص30.

[2] القرآن الكريم ،سورة الجمعة: آية رقم 9،ص553.

[3] الشاطبي، الموافقات،تح أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان 69/2.

[4] القرآن الكريم، سورة البقرة: آية رقم 9، ص07.

[5] ذو الرمة، الديوان، ص76. والشخت: الشيء الدقيق. ظاهَرَ: صَنَع شيئاً على شيء. والمعنى: أن يصنع الحطب اليابس فوق النار، ويستعين على إشعالها بريح الصبا، وجعل اليدين لها ستراً، مما يساعد على شدة الاشتعال. ينظر: تعليق محمد دراز على البيت في الموافقات، 83/2.

الكلام لا بحسب تفسير اللغة"[1]. فتظهر العناية بقصد المتكلم دون الالتفات إلى اللفظ إلاّ بما يحقق الغرض من سياق الخطاب.

كما اهتموا بتطور دلالة الألفاظ وعلاقاتها وما يظللها من المفاهيم المتواردة عليها بعرف الاستعمال وبإرادة الشارع وقصده. ومما يدل على عنايتهم بالمضمون؛ لأن مهمتهم استنباط الأحكام بفهم معانيها من أغراض الشريعة ومقاصدها من ثلاثة أمور: القول، ومعناه، وعلة الحكم. فمثل قوله تعالى: ﴿اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ﴾[2]، للأمر في ظاهره، إلا أنه يقصد به المبالغة في التهديد والخزي، وهي الدلالة الثانية، أو المعنى التبعي، كما يقول الأصوليون.

وقد أوضح ابن قيم الجوزية عنايتهم بقصد المتكلم بقوله: " إنَّ النبيَّ – صلى الله عليه وسلم– قال: لا يقضي القاضي بين اثنين وهو غضبان[3]، يشير النص إلى أن الغضب يعوق صفاء الذهن ويمنع الفهم السليم، مما يضعف قدرة الإنسان على إدراك الأمور بعمق. كما يبين أن الاقتصار على النهي عن الغضب وحده دون الانتباه لبقية المؤثرات العقلية كالحزن والخوف والجوع يُعد فهماً قاصراً. ويؤكد أن العبرة في فهم الكلام إنما تكون بالمقاصد والمعاني لا بمجرد الألفاظ، فالحكم الصحيح يعتمد على إدراك مراد المتكلم سواء من عموم لفظه أو عموم مقصده[4].

فاعتناؤهم بالمعنى كانت غايته التعرف على مراد المتكلم صاحب النصّ وما يقصده من فحوى الرسالة ومحتواها لتحقيق أهداف الشريعة، لذلك اهتم الأصوليون بلغة النصّ وما تدلّ عليه من قريب أو بعيد،

[1] الشاطبي، إبراهيم بن موسى .*الموافقات في أصول الشريعة* .تحقيق: عبد الله دراز، بيروت: دار المعرفة، د.ط، د.ت، ج2، ص57.

[2] القرآن الكريم ،سورة فصلت: آية رقم 40،ص481.

[3] أخرجه النسائي في السنن، 209/7.

[4] ابن قيم الجوزية، إعلام الموقعين، 188/1.

فاللفظ والمعنى عندهم هما دليل الحكم، فيبحثون في الألفاظ والتراكيب، لضبط الدلالة بما يتفق وقصد الشارع، واستثمار المعنى (الحكم) الصحيح من النصوص المتعلقة بالمسائل المعروضة[1].

وفوق ذلك فقد خصص ابن القيم اعتماد قصد المتكلم بخصوصية أبعد من ذلك كله، وهو أن يفسر النص القرآني على وفق عرف القرآن نفسه، إذ اشترط أن يكون دارسه عارفاً بطرائقه وعرفه ؛ لأنه: "لا يجوز أن يحمل كلام الله – عزَّ وجلَّ – ويفسر بمجرد الاحتمال النحوي الإعرابي الذي يحتمله تركيب الكلام، ويكون الكلام به له معنى مّا؛ لأن للقرآن عرف خاص ومعان معهودة لا يناسبه تفسيره بغيرها"[2].

ومن أمثلة ذلك أن الأصوليين أخذوا من قوله تعالى: ﴿فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾[3]- وهو يرشد المخاطب إلى استثمار الخطاب – أخذوا منه: أنَّ ما يجب أن ينصرف إليه جهد المتفقه في الخطاب هو ما يقصد إليه المتكلم ويريده من الألفاظ في تركيبها وتناسقها وعلاقاتها فيما بينها؛ لأن: "الألفاظ المفردة التي هي أوضاع اللغة لم توضع لتعرف بها معانيها في أنفسها، ولكن لأن يضم بعضها إلى بعض، فتعرف فيما بينها فوائد"[4]. إذ اللفظ الخاص قد ينقله المتكلم من الخصوص إلى العموم، والعام قد ينقله من العموم إلى الخصوص في التركيب، معبراً بكل ذلك عن إرادته التي ينصب لها من الأدلة في الخطاب نفسه وخارجاً عنه ما يجعلها تُفهم عند سماع الخطاب؛ لأن: "الألفاظ ليست تعبدية، والعارف يقول: ماذا أراد؟ واللفظي يقول: ماذا قال؟ كما كان الذين لا يفهمون إذا خرجوا من عند النبي – صلى الله عليه وسلم

[1] ينظر: الشاطبي، الموافقات، 119/2. د. أحمد عبد الغفار، التصور اللغوي عند الأصوليين، ص116.

[2] ابن القيم، محمد بن أبي بكر .*بدائع الفوائد* .تحقيق: يوسف بن حسن بن عبد الهادي، بيروت: دار عالم الفوائد للنشر والتوزيع، ط1، 1416هـ - 1996م، ج3، ص27.

[3] القرآن الكريم،سورة النساء: آية رقم 78،ص89.

[4] عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص315.

– يقولون: ﴿ مَاذَا قَالَ آنِفًا ﴾[1]؟ وقد أنكر الله سبحانه عليهم وعلى أمثالهم بقوله: ﴿فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا﴾، فذمَّ من لم يفقه كلامَه.

والفقه أخص من الفهم، وهو فهم مراد المتكلم من كلامه، وهذا قدر زائد على مجرد وضع اللفظ في اللغة. وبحسب تفاوت مراتب الناس تتفاوت مراتبهم في الفقه والعلم"[2]، فإن: "عرف مراد المتكلم بدليل من الأدلة وجب اتباع مراده. والألفاظ لم تقصد لذواتها، وإنما هي أدلة يستدل بها على مراد المتكلم، فإذا ظهر مراده ووضح بأي طريق كان عمل بمقتضاه، سواء كان بإشارة أو كتابة أو بأمارة أو دلالة عقلية أو قرينة حالية أو عادة له مطردة لا يخل بها"[3].

وبهذا فقد أرشد المنهج الأصولي إلى أن الدلالة ينبغي أن تكون تابعة لإرادة المتكلم وقصده، لا إلى ما تدل عليه الألفاظ في ظاهرها. مما جعل البحث والاستدلال العلمي عند الأصوليين منصباً على الدلالة التصديقية، لا الدلالة التصورية[4]، انصب اهتمامهم على الكشف عن مراد الشارع من خلال نصوص التشريع، فقسّموا الدلالة إلى حقيقية تعبّر عن قصد المتكلم، وإضافية مطلقة تمثل ما يفهمه السامع سواء طابق قصد المتكلم أو لا. وقد يحدث أن يفهم السامع المعنى الحقيقي للفظ قصد به المتكلم المعنى المجازي، أو العكس، لكنه يستدل بقرائن مناسبة توصله إلى المقصود الحقيقي. فالغاية هي إدراك الدلالة الحقيقية المتوافقة مع مراد المتكلم[5].

---

[1] القرآن الكريم ،سورة محمد: آية رقم 16ص507.

[2] ابن القيم، محمد بن أبي بكر .*إعلام الموقعين عن رب العالمين* .تحقيق: محمد محيي الدين عبد الحميد، بيروت: دار الكتب العلمية، د.ط، د.ت، ج1، ص219..

[3] المصدر نفسه.

[4] يقسّم الأصوليون الدلالة بحسب قصد المتكلّم إلى:

–دلالة تصورية ؛ وهي ما يدلّ عليه اللفظ في تصور المحتمِل (أي : المتناوِل للخطاب بالبيان والشرح والتفسير) حتى وإن لم يكن هذا المدلول للفظ مقصوداً من جانب المتكلّم، ومثال ذلك: انتقال ذهن المتلقي إلى المعنى الحقيقي عند استعمال المتكلّم اللفظ في معنى مجازي.

– دلالة تصديقية؛ وهي دلالة اللفظ على أنّ معناه هو مراد المتكلّم، وأنّه قاصد لاستعماله بهذه الدلالة.

ينظر: الشاطبي، الموافقات، ج3،ص93.

[5] ينظر: د. وهبة الزحيلي، أصول الفقه الإسلامي، 20/1.

خلاصة الفصل:

يُعدّ السياق من المفاهيم الأساسية في الدراسات اللغوية، حيث يساهم بشكل كبير في تحديد المعاني وضبط الدلالات. وعلى الرغم من أن البحث اللساني الحديث قد تناول هذا المفهوم ضمن أطر منهجية دقيقة، فإن الفكر اللغوي القديم كان أيضًا مدركًا لأهمية السياق، حيث تم تناوله من عدة زوايا مثل الفلسفة والنحو والبلاغة وعلم أصول الفقه. ففي الفلسفة، أشار أرسطو إلى تأثير العوامل المحيطة بالكلام في تحديد معانيه، بينما أكد الفلاسفة الرواقيون على أهمية السياق في فهم دلالة الألفاظ. وفي النحو العربي، ربط النحاة، ومن بينهم سيبويه، دلالة الكلمات بموقعها في الجملة. كما أبرز عبد القاهر الجرجاني في البلاغة دور السياق في تحديد المعنى من خلال ترابط الألفاظ. وفي علم أصول الفقه، اعتُمد السياق لفهم النصوص الشرعية وضبط دلالاتها، مما يبرز أن السياق كان عنصرًا جوهريًا في الفكر اللغوي القديم، وأساسًا في تحليل الخطاب وفهمه.

الفصل الثاني: السياق من خلال آفاق الفكر اللّساني العربي الجديد

1-المُعطى السياقي عند مالينوفسكي وفيرث (Firth & Malinowski)

2-السياق في التداوليات النصية

3-السياق في نظرية التلفظ

توطئة:

تُعدّ دراسة اللغة في علاقتها بالسياق من أبرز التحولات التي عرفتها اللسانيات المعاصرة، إذ تجاوزت النظرة التقليدية للغة بوصفها نسقًا شكليًا مغلقًا نحو تصور ديناميكي يربط بين اللغة والواقع الاجتماعي. وقد كان لكل من برونيسلاف مالينوفسكي وجون فيرث دورٌ رائدٌ في إرساء أسس النظرية السياقية، مُبرزين أهمية المحيط والمقام في إنتاج المعنى وفهم الخطاب.

وفي الإطار ذاته، جاءت نظرية التواصل عند رومان جاكبسون لتُعيد صياغة العلاقة بين عناصر العملية التواصلية ووظائف اللغة المختلفة، مما فتح آفاقًا جديدة أمام دراسة الأداء اللغوي. كما شهدت التداولية ولسانيات النص تطورًا ملحوظًا، حيث تم التركيز على أبعاد الاستعمال اللغوي ومقاصد المتكلم والبعد السياقي للنصوص.

وإلى جانب ذلك، أظهرت نظريات التلفظ أهمية المقام بوصفه عنصرًا فاعلًا في تحديد قيمة الأفعال الكلامية وسياقات أدائها، مما أسهم في تعميق فهم طبيعة التفاعل اللغوي وأبعاده التداولية. وعليه، فإن هذه المحاور مجتمعة تبرز التداخل الوثيق بين اللغة والسياق في مختلف النظريات اللسانية الحديثة.

1-المُعطى السياقي عند مالينوفسكي وفيرث (Firth & Malinowski)

ظهرت النظرية السياقية تحت تأثير التحولات المجتمعية والتطورات الفكرية التي شهدها النصف الثاني من القرن العشرين، ويُنسب تأسيسها إلى اللغوي البريطاني جون روبرت فيرث (John Robert Firth)(ت. 1960م)، الذي يُعدّ رائد المدرسة السياقية في علم الدلالة. تميزت هذه النظرية بتركيزها على تفسير المعنى من خلال طريقة استخدام الكلمات في سياقاتها المختلفة، أي أن فهم المعنى لا يتحقق إلا من خلال تحليل البيئة اللغوية التي ترد فيها الكلمة داخل النص.

استند فيرث في تطوير منهجه إلى الإرث اللساني السابق، ولا سيما أعمال فرديناند دي سوسير في البنيوية اللغوية. إذ يرى دي سوسير أن الكلمة تشكل علامة لغوية، وأن العلاقة بين الدال والمدلول علاقة اعتباطية، غير معللة جوهريًا، مما يعني أن العلامة اللغوية لا تمتلك دلالة ثابتة بحد ذاتها، بل تتحدد من خلال السياقات التي ترد فيها. وبهذا، تتشكل الدلالات المختلفة للكلمات عبر شبكة من التداعيات المفهومية التي تتفاعل ضمن النظام اللغوي العام[1].

أولاً: النظرية السياقية عند (فيرث – Firth)

تُعَدّ النظرية السياقية (Contextual Theory)، التي أسّس لها عالم اللسانيات البريطاني جون روبرت فيرث (J. R. Firth)، أحد أبرز الإسهامات في تطور الدرس اللساني الحديث. فقد استلهم فيرث الكثير من أفكاره من الأبحاث التي قدمها عالم الأنثروبولوجيا برونيسلاف مالينوفسكي (B. Malinowski)، ولا سيما دراساته التي ركزت على البعد الاجتماعي للغة. فمن منظور مالينوفسكي، لا يمكن فهم اللغة بوصفها مجرد نسق من الرموز المجردة أو الإشارات الاعتباطية، بل ينبغي دراستها ضمن

[1] تمام حسان، اللغة ومعاجمها، القاهرة: دار عالم الكتب، 2005، ص85–87.

إطارها الاجتماعي والثقافي. وقد تبنّى فيرث هذا الاتجاه، مؤكّدًا على ضرورة النظر إلى اللغة باعتبارها جزءًا لا يتجزأ من الممارسات الاجتماعية التي تشكّلها وتؤثر فيها، حيث يقول" :يجب أن تُدرس اللغة بوصفها جزءًا من النشاط الاجتماعي، أي كشكل من أشكال الحياة الإنسانية وليس كمجرد نسق من العلامات الاعتباطية[1].

وانطلاقًا من هذا التصور، سعى فيرث إلى دراسة مكونات اللغة وتحليل بنيتها في ضوء السياقات الاجتماعية المختلفة، مما دفعه إلى التركيز على العلاقات التي تربط اللغة بالمجتمع. وقد أدى هذا الاهتمام إلى تبنّيه لمفهوم "سياق الموقف(Context of Situation) "، وهو المفهوم الذي وضع أُسُسَهُ مالينوفسكي أثناء محاولاته لفهم طبيعة الترجمة الإثنوغرافية للنصوص التي جمعها خلال عمله الميداني في جزر التروبرياند .فقد واجه مالينوفسكي مشكلة في تفسير معاني الكلمات والتراكيب اللغوية التي استخدمها السكان المحليون، حيث وجد أن فهم هذه اللغة لا يمكن أن يتم بصورة دقيقة إلا من خلال تحليلها ضمن سياق الموقف الذي وردت فيه. ولذلك، قام بصياغة مفهوم سياق الموقف ليكون منهجًا تحليليًا يتيح دراسة المعاني اللغوية بناءً على الاستخدام الفعلي للكلام في مواقف محددة.

وقد كان لهذا المفهوم تأثيرٌ جوهري في تطوير النظرية السياقية عند فيرث، حيث تبنّى هذه الفكرة وعمل على توسيع نطاقها، ليؤكد أن المعنى لا يُشتق فقط من البنية الداخلية للجملة، وإنما يتشكل أيضًا من خلال تفاعل العناصر اللغوية مع الظروف الاجتماعية التي تحيط بها. وبذلك، شكّلت النظرية السياقية انطلاقةً محوريةً نحو فهم أكثر شمولية للغة، حيث أصبحت دراسة المعنى تعتمد على تحليل اللغة داخل بيئتها الاجتماعية، وليس فقط من خلال بنيتها النحوية أو المعجمية.

[1] مومن أحمد، اللسانيات –النشأة والتطور–، ديوان المطبوعات الجامعية، ط2، الجزائر، 2005م، ص174-177.

لقد أولى (فيرث) لعلم الدلالة أهمية كبرى في الوقت الذي كان فيه اللسانيون يمتنعون عن دراستها؛ باعتبارها خارج نطاق اللسانيات وفوق طاقتها.

سعى جون روبرت فيرث إلى ترسيخ دراسة الدلالة (Semantics) بوصفها فرعًا مستقلًا داخل اللسانيات، معتبرًا أن تحليل المعنى يمثل المهمة الجوهرية في اللسانيات الوصفية (Descriptive-Linguistics) فقد أكد على هذه الفكرة بقوله" :دراسة الدلالة هي المهمة الرئيسية للسانيات الوصفية ."ومن هذا المنطلق، عمل فيرث على تقديم إطار نظري يوضح طبيعة العلاقات الدلالية التي تحكم الألفاظ على الشكل التالي[1]:

- **السياق اللغوي "Linguistic context"**: يشير إلى العلاقات التركيبية بين الكلمات في الجملة، التي تسهم في تحديد المعنى المقصود للكلمة ضمن نسق لغوي معين. مثال على ذلك كلمة "عين" التي تحمل معاني متعددة مثل "عضو الإبصار" أو "الجاسوس"، ويتم تحديد المعنى الصحيح بناءً على السياق. بذلك، يُعدّ السياق عنصرًا أساسيًا لفهم المعنى الدقيق للألفاظ في الحالات ذات التعدد الدلالي.
- **السياق العاطفي**: "**Emotionel context**" يرتبط السياق الانفعالي بتأثير الكلمات على التمييز بين الدلالة الموضوعية والعاطفية، ويؤثر في شدة التعبير بين القوة والضعف. يظهر ذلك بشكل خاص في حالات الغضب، حيث لا يُقصد بالعبارات معناها الحرفي بل يُستخدم للتعبير عن

[1] ينظر: مومن أحمد، اللسانيات –النشأة والتطور–، مرجع سابق، ص179.

الانفعالات. مثال على ذلك، قول شخص غاضب "لَأَقْتُلَنَّكَ!" التي تعبر عن شدة الغضب أكثر من المعنى الحرفي للقتل[1].

- **سياق الموقف"context of situation"**: الظروف الخارجية أو المؤثرات التي تؤثر على الكلام تتعلق بسياق الموقف الذي يجري فيه الحديث، مثل العلاقة الزمانية والمكانية. فمثلاً، جملة "يرحمك الله" تقال عند تشميت العاطس وتطلب الرحمة في الدنيا، بينما "الله يرحمه" تُقال عند الترحم على الميت وتطلب الرحمة في الآخرة. الاختلاف بين الجملتين يظهر في الفعل والاسم المستخدمين في البداية.
- **السياق الثقافي"Cultural context"**: تعتبر نظرية فيرث السياقية من أبرز النظريات اللسانية الحديثة، حيث تشير إلى أن معاني الكلمات تتحدد بناءً على الظروف الاجتماعية والثقافية للسياق الذي تستخدم فيه. على سبيل المثال، كلمة "حرمة" قد تستخدم في طبقات المجتمع المتوسطة ذات الثقافة المحدودة، بينما "مدام" تستخدم في الطبقات العالية للدلالة على الزوجة. هذه النظرية تلقي الضوء على أهمية "السياق اللغوي" في فهم معاني الكلمات وتوظيفاتها المختلفة.

ثانياً: السياق عند مالينوفسكي

تُعدّ نظرية السياق عند برونيسلاف مالينوفسكي من أهم الإسهامات في مجالي اللسانيات والأنثروبولوجيا، حيث اعتبر أن فهم المعنى اللغوي لا يمكن فصله عن السياق الاجتماعي والثقافي الذي يحدث فيه التواصل. وقد قدّم مفهوم "السياق الموقفي" الذي يركز على أهمية العوامل الاجتماعية والثقافية في تفسير الخطاب. كما كان مالينوفسكي من العلماء البارزين في الأنثروبولوجيا، حيث كان مهتمًا بالتحليل

[1] البركاوي، عبد الفتاح عبد العليم، دلالة السياق بين التراث وعلم اللغة الحديث، القاهرة: دار النشر للجامعات، 2005م، ص53.

الميداني واللغوي، موضحًا أن فهم الثقافة يتطلب التفاعل المباشر مع المجتمعات المدروسة. من أهم أعماله "دراسة الكولا" التي تناولت نظام الهبة بين قبائل بولينيزيا. تُعتبر هذه الإسهامات مرجعية في الدراسات الحديثة عن تحليل الخطاب واللسانيات الاجتماعية[1].

وقد صاغ مالينوفسكي مصطلحه "سياق الحال" في بحثه الشهير «**The Problem of Meaning in Primitive Languages**»، حيث قدّم رؤية متقدمة حول الوظيفة اللغوية، مبينًا أن اللغة لا تقتصر على كونها وسيلة لنقل الأفكار أو التعبير عنها، بل تتجاوز ذلك لتكون جزءًا من السلوك الإنساني، إذ تؤدي العديد من الوظائف الاجتماعية إلى جانب وظيفتها التبليغية[2].

وبين "مالينوفسكي" أن فكرة سياق الحال "تعني أكثر من اللغويات والثقافة والبيئة وغيرها من العناصر اللغوية الميتة؛ وقد قصد بهذا المصطلح أيضا الوقوف على الجانب اللغوي الحي، بمعنى دراسة اللغة عن طريق المشاهدة والملاحظة للكلام المنطوق في الموقف الفعلي، إذ أن معنى الكلمات متأصل في كفاءتها العملية"[3].

وفقًا لمالينوفسكي، لم يكن الاتصال اللغوي مقتصرًا على الكلمات فقط، بل شمل أيضًا الروابط والسياقات الخارجية التي تؤثر في إنتاج الكلام وفهمه. خلال دراساته الميدانية على قبائل الميلانيزيين في جزر تروبرياند، لاحظ أن فهم النصوص يتطلب إدراك "سياق الحال"، حيث تكون الكلمات مرتبطة بالنظام الاجتماعي والمعتقدات والعادات المحلية. وقد واجه صعوبات في ترجمة هذه النصوص إلى الإنجليزية، إذ أدرك أن الترجمة لا يمكن أن تقتصر على نقل الكلمات فقط، بل تتطلب فهم السياقات الاجتماعية والثقافية.

[1] مالينوفسكي، برونيسلاف، "الأنثروبولوجيا ووظائف الثقافة". دار النسر، 1922، ص57-59.

[2] محمود أحمد حسن المراغي: علم الدلالة مع دراسة تطبيقية مقارنة بين العربية والفصحة وعبرية العهد القديم، دار المعارف المصرية، مصر، 2007، ص24.

[3] عبد الباقي غفور، نظرية "سياق الحال " في البحث اللغوي عند العالم الأنثروبولوجي "برونيسلاو كاسبار مالينوفسكي"، مجلة إشكالات في اللغة والأدب: مجلد 11 عدد1، 2022 ص1134.

وبالتالي، اعتبر مالينوفسكي أن اللغة ليست مجرد وسيلة للإخبار، بل أداة عملية تنظم النشاط الاجتماعي وتساهم في بناء العلاقات داخل الجماعة[1].

وفي هذا المقام نجده يقول: "اللغة بالفعل والمعنى بالاستعمال"؛ أي أن اللغة لا تكون كذلك إلا باعتبارها حدثا كلاميا-لا نصوصا مسجلة في بطون خلال الاستعمال أو سياق الحال[2].

تبرز أهمية ارتباط المعنى بالسياق الثقافي، حيث لا يمكن فهم الألفاظ بدقة دون مراعاة ثقافة المجتمع الذي يتحدث بها. فامتلاك خلفية ثقافية واجتماعية يعين على فهم المعاني الضمنية للكلمات، التي تتجاوز كونها وحدات لغوية لتكون تعبيرًا عن أنماط فكرية تؤدي وظائف حيوية. وقد أشار مالينوفسكي إلى أن بساطة الجمل في اللغات البدائية تخفي وراءها معاني عميقة لا يمكن استنباطها إلا من خلال تحليل السياق الاجتماعي والثقافي، مؤكدًا أن الباحث لن يفهم ما يدور من حديث دون معرفة السياق الذي تجذر فيه اللغة[3].

ورأى مالينوفسكي أن كل ما ينتمي إلى المحيط الثقافي للنص يجب أن يُؤخذ بعين الاعتبار عند الترجمة، لأن أي محاولة لفصل اللغة عن سياقها الاجتماعي تؤدي إلى تحريف المعنى الأصلي. وقد وصف آف. آر. بالمر مفهوم "سياق الحال" عند مالينوفسكي بأنه "جزء من العملية الاجتماعية التي يمكن دراستها بشكل مستقل، أو بوصفها حلقة منتظمة من الأحداث، أي مجموعة فعلية من الظواهر القابلة للملاحظة". وهذا

[1] جيفري سامبسون: المدارس اللغوية التطور والصراع، تر: أحمد نعيم الكراعين، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، لبنان، 1993، ص234.

[2] أحمد نعيم الكراعين: علم الدلالة بين النظر والتطبيق، الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، لبنان، 1993، ص102.

[3] عبده الراجحي: اللغة وعلوم المجتمع، كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، مصر، 1977، ص25.

يعكس رؤية مالينوفسكي بأن اللغة ليست مجرد كيان مستقل، بل هي ظاهرة متجذرة في البنية الاجتماعية والثقافية، ولا يمكن فهمها فهمًا عميقًا دون تحليل سياقها الكلي[1].

يرى مالينوفسكي أن وصف اللغة لا يمكن أن يكون متكاملًا دون الإشارة إلى سياق الحال الذي تعمل اللغة ضمنه، حيث تتجلى وظيفتها الحقيقية ضمن هذا الإطار. وقد توصَّل إلى عدة نتائج محورية في دراسته للعلاقة بين اللغة والسياق الاجتماعي، من أبرزها[2]:

- **اللغة كنشاط اجتماعي**: اللغة ليست مجرد وسيلة صوتية لنقل الأفكار، بل هي نشاط إنساني وجزء من السلوك الاجتماعي، مما يجعلها أكثر تعقيدًا من كونها أداة للتواصل.
- **أهمية سياق الحال في الفهم**: لا يمكن فهم الوحدات اللغوية بشكل مستقل، بل يجب النظر إليها ضمن سياق الحال الذي قيلت فيه. ويشمل هذا السياق الأبعاد الشخصية والثقافية والتاريخية، إضافة إلى الظروف الفيزيقية التي تحيط بالتفاعل اللغوي بين المتكلمين والمستمعين.
- **الارتباط الوثيق بين الألفاظ والثقافة**: الألفاظ ليست كيانات عالمية لها مكافئات مباشرة في كل اللغات، بل هي مرتبطة بالثقافة التي نشأت فيها. لذلك، لا تكون الترجمة ممكنة إلا بفهم السياق الثقافي للمفاهيم. كما أشار مالينوفسكي، فإن صعوبات الترجمة تنبع من الاختلافات بين اللغات، مما يجعل سياق الحال أمرًا بالغ الأهمية، خاصة في اللغات البدائية.

➢ **منهج الباحث اللغوي الأنثروبولوجي**: عند دراسة لغات الجماعات التي لا تملك نظامًا كتابيًا، يعتمد الباحث على المنهج الميداني والمعايشة المباشرة لفهم العلاقة بين اللغة والثقافة. تُعد النصوص

[1] المرجع السابق، ص62.

[2] أحمد مختار، علم الدلالة، القاهرة: عالم الكتب، طه، 1998م، ص 69- 71. قدور أحمد عمر محمد، مبادئ اللسانيات، دمشق: دار الفكر، ط3، 2008م، ص352 - 355.

الشفهية مثل الحكايات والطقوس مصدرًا أساسيًا لفهم البنية اللغوية والثقافية، ويُعد الراوي المحلي وسيطًا مهمًا في نقل الاستخدامات اللغوية. لا تكتمل دراسة اللغة دون ربطها بسياقاتها الثقافية، لأن المعنى يتشكل ضمن النسيج الاجتماعي الذي تُستخدم فيه اللغة[1].

وفي حديث "مالينوفسكي" عن سياق الحال، أوجد ما يسمى "بالتجامل"، وذهب إلى:" أن كثيرا مما نتكلم به لا يقصد به أساسا التفاهم، أو تقديم المعلومات، أو إصدار الأوامر، أو التعبير عن الأمال والرغبات وإثارة العواطف، وإنما يستعمل لخلق شعور بالتفاهم الاجتماعي والمعاملة؛ وكثير من العبارات المعدة أصلا مثل-How do you do-المحددة اجتماعيا قد تخدم هذا الغرض، أي التجامل"[2].

هذه هي الخطوط العامة لفكرة "سياق الحال" كما أوضحها "مالينوفسكي"، والذي أكد من خلالها على أنها أصح سبيل إلى الدرس اللغوي وإلى بحث حياة اللغات، فهي التي تكشف لنا عن طبيعة اللغة من خلال إطارها الثقافي.

وانطلاقًا من أفكار **مالينوفسكي**—وخاصة مفهوم **الموقف اللغوي**، وعلاقة اللغة بالثقافة، وإشكالية المعنى والترجمة—قام **جون روبرت فيرث** بتطوير نظريته الخاصة في اللسانيات. فقد رأى فيرث أن دراسة **المعنى** تمثل الهدف الأساسي من البحث اللساني، وأنه لا يمكن عزل اللغة عن سياقات استخدامها، بل يجب أن تركز اللسانيات على دراسة **السياق** بوصفه عنصرًا جوهريًا في تحديد المعنى.

أكد فيرث أن المعنى لا يتحدد فقط من الكلمات، بل يرتبط بهدف المتكلم واستخدامه للغة، مما يستدعي تحليل السياق الاجتماعي والثقافي لفهم المعنى بشكل دقيق. وأشار "Leech" إلى أن فيرث تأثر

[1] عبد الغفار حامد هلال: اللهجات العربية نشأة وتطورا، ط2، مكتبة وهبة، القاهرة، 1993، ص124.

[2] جول لاينز: علم الدلالة الفصلان التاسع والعاشر من كتاب مقدمة في علم اللغة النظري، (1980)، تر: مجيد عبد الحليم الماشطة وحليم حسن فالح وكاظم حسين باقر، كلية الأدب، جامعة البصرة (دمشق)، ص32.

بالأنتروبولوجي مالينوفسكي، الذي اعتبر اللغة صيغة حركية تعكس دورها في المجتمع، مما جعل السياق محوريًا في تفسير المعنى والتواصل[1].

تؤكد أفكار مالينوفسكي وفيرث على أن دراسة اللغة يجب أن تشمل السياق الاجتماعي والثقافي، حيث يرتبط المعنى اللغوي بالعلاقات الاجتماعية والثقافية للمتحدثين. بيّن مالينوفسكي أن المعنى لا يُفهم إلا في سياق الحال، بينما رأى فيرث أن فهم المعنى يتطلب تحليل غرض المتكلم من اللغة. بذلك، أصبحت اللسانيات السياقية منهجًا أساسيًا لفهم اللغة كظاهرة اجتماعية ترتبط بالممارسات اليومية والثقافة.

نظرية التواصل عند جاكبسون

تُعدّ نظرية التواصل اللغوي، التي بلورها رومان جاكبسون، من النظريات اللسانية الحديثة الأكثر تأثيرًا في حقل الدراسات اللغوية. تستند هذه النظرية إلى مفهوم التواصل باعتباره عملية مركبة، تتشكل من عناصر أساسية تشمل المرسل، والمتلقي، وقناة الاتصال، والمرجع، والسنن، والرسالة. وقد أسهمت هذه النظرية في تسليط الضوء على الوظائف المتعددة للغة، مبينةً أن الأداء اللغوي لا يقتصر على البعد الإخباري فحسب، بل يمتد ليشمل أبعادًا دلالية وتداولية متنوعة[2].

يتقاطع الطرح النظري لجاكبسون مع التراث اللغوي العربي، حيث ميّز النحاة بين الوظيفة النحوية والتداولية، كما التقت تصورات البلاغيين مع تصنيفه للوظائف، خاصة الشعرية والمرجعية. لذا، تقدم نظرية جاكبسون إطارًا معاصرًا لإعادة قراءة البلاغة العربية بما يعزز التكامل بين اللسانيات والبلاغة.

[1] أحمد عمر مختار، علم الدلالة، ط5، عالم الكتب، القاهرة، 1998، ص72.

[2] دلدار غفور حمد أمين ونشأت علي محمود، نظرية التواصل وأبعادها في الدرس اللغوي العربي"، "جامعة بوزانسته، مركز تقييم كان بادري، 18، ثماره 10، سالي 2014."، ص117.

❖ **المرسل:** وهو المصدر الأساس في العملية التواصلية، وقد سمي بعدة أسماء منها الباث والمتحدث[1] والناقل[2] وسمي بالمخاطب أيضا كما تقدم، ولولا المرسل لما وجدت العملية التخاطبية أصلا لأنه مصدرها.

❖ **المرسل إليه:** وهو الجهة التي توجه له الرسالة من المرسل، ولا بد من أن يكون المرسل إليه مؤهلا لفهم الرسالة كما اشترط ذلك جاكبسون[3]، فليس كل مستقبل (متحدث إليه) للرسالة يصلح أن يكون مرسلا إليه، وقد فرّقنا هنا بين المستقبل –كما استعمله بعض اللغويين المحدثين للتعبير عن المرسل إليه– والمرسل إليه، لأن الاستقبال هو عملية فيزيائية وأما المرسل إليه فلا بد من أن يكون مدركا للرسالة أي مؤهلا للفهم والتأويل، فالمجنون قد يستقبل ولكنه ليس مدركا وكذا الطفل الصغير غير المميز فإن دماغه يستقبل الذبذبات الصوتية ولكنه لا يستطيع تحليلها وإدراك معانيها، وقد أدرك جاكبسون هذه التفرقة حين قال عن المرجع (سياقا قابلا لأن يدركه المرسل إليه)[4]، وقد اشترط علماء أصول الفقه والفقهاء أنْ يكون المخاطب عاقلا فاهما للخطاب انطلاقا من قول الرسول (صلى الله عليه وسلم): رفع القلم عن ثلاثة : "عن المجنون المغلوب على عقله حتى يبرأ وعن النائم حتى يستيقظ وعن الصبي حتى يحتلم"[5] والحديث وإن تكلم عن التكليف الشرعي لكنه بيّن الأساس في فهم الخطاب بأن يكون مدركا فاهما له مؤهلا لحمل دلالات النصوص.

---

[1] ينظر: الدكتور عبد السلام المسدي، الأسلوب والأسلوبية، طبعة رابعة، الكويت، عام 1993م، ص137.

[2] عبد السلام المسدي، أساسيات الخطاب العلمي والخطاب اللساني، طبعة دار سعاد الصباح في الكويت،1993، ص43.

[3] ومان ياكبسون، قضايا الشعرية، ت: محمد الولي، مبارك حنوز، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، 1988، ص28.

[4] المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[5] جلال الدين عبد الرحمن السيوطي، الجامع الصغير، طبعة الحادية عشرة، 2022، ص332.

كما أن المرسل إليه في الفكر اللغوي العربي ليس شرطا أن يكون موجودا بالفعل بل يكفي أن يكون موجودا بالإمكان العام، ولهذا صحت تسمية الخطاب خطابا وإن كان المخاطب غير موجود حال التخاطب كما تقدم عن علماء أصول الفقه.

- **الرسالة:** ولا يقصد بالرسالة أن تكون وحدات مكتوبة فقط. فقد تكلم جاكبسون على الاتصال اللساني (التواصل اللفظي) في نظريته عندما بين أن عملية فك الرموز تنتقل من الصوت إلى المعنى فتنتقل الرسالة من المرسل إلى المرسل إليه[1]، فالرسالة في مفهوم جاكبسون هي متواليات صوتية أو ما يكون في قوة ذلك إن كان الخطاب مكتوبا – ولكي تكون الرسالة فاعلة فلا بد من أن تحيل إلى مرجع مشترك بين المرسل والمرسل إليه.
- **المرجع (السياق)** [2]: الموضوع هو ما يوجهه المرسل إلى المرسل إليه ضمن رسالة، ويرتبط بظروف الزمان والمكان وحال الطرفين. يشترط لقبول المرجع والسياق أن يكونا واضحين ومتفقا عليهما لضمان نجاح التواصل اللغوي. وقد اشترط النحاة والأصوليون معرفة المتكلم بكلامه وفهم المرسل إليه للرسالة تحقيقًا لهذا الهدف.
- **السنن:** ويقصد به نظام الترميز الخاص بين المرسل والمتلقي، وهذا المصطلح استعمله جاكبسون للدلالة على النظام اللغوي العام الذي يستعمله المتكلم[3] وأما دي سوسير فقد استعمل مصطلح (اللغة)[4].

[1] مفتاح، محمد .التواصل اللساني والشعرية .الدار البيضاء: دار الثقافة، ط1، 1985م، ص27.

[2] عبد الله الغذامي، حدود التواصل: نحو تأصيل نظرية للتلقي، الطبعة الثانية، المركز الثقافي العربي، 2005، ص38.

[3] تزفيتان تودوروف (Tzvetan Todorov) ، قضايا الشعرية، ت.ر: منذر عياشي، الطبعة الأولى، دار توبقال للنشر – المغرب، 1980، ص27.

[4] علم اللغة العام 27.

واستعمل هيلمسيلف (النظام) واما تشومسكي فقد استعمل (القدرة)[1] يقصد بهذا المصطلح وجود نظام لغوي مشترك بين المرسل والمتلقي، يتيح للمرسل إلقاء رسالته وفق هذا النظام، ويفهمها المتلقي ويؤولها بناءً عليه. وهذا النظام العام يتحقق عبر أنواعه الجزئية كتركيبات الكلام، والأساليب البلاغية، والأبنية الصرفية والمعجمية.

السنن هو الكلي الذي لا يتحقق إلا بأنواعه، ويمكن تشبيهه باللغة كما فعل دي سوسير لسهولة الفهم. يرى جاكبسون أن الاشتراك في السنن قد يكون كليًا أو جزئيًا، أما جهله فيمنع التواصل. وإذا تعددت دلالاته، وجب على المتلقي استخدام الأدلة لتحديد المعنى الصحيح وإتمام التواصل[2].

❖ **قناة الاتصال:** وهي فيزيقية (فيزيولوجية)، وهي تسمح بإقامة التواصل عن طريق نقل الرسالة من المرسل إلى المرسل إليه[3]، وقناة الاتصال في اللسانيات اللغوية هي الهواء الناقل باعتبار أن الأصل في التواصل أن يكون خطابا أي كلاما ملفوظا، ويمكن في عصرنا أن تتعدد قنوات الاتصال من المشافهة والانترنت والتلفاز والمذياع وغيرها من قنوات الاتصال الأخرى. وتعد القناة إلى جانب المرجع كما تقدم عاملا رئيسا في العملية التواصلية اللسانية، إذ لولا القناة الناقلة لما حصل تواصل لساني خطابي. وقد وضع جاكبسون خطاطة صغيرة يوضح بها هذه العناصر(العوامل) التي لا يستغني عنها التواصل اللفظي[4]:

[1] ينظر: أحمد محمد قدور، الطبعة الرابعة، التواصل اللساني والشعرية، دار الفكر، دمشق، 2006، ص28.

[2] رومان ياكبسون، قضايا الشعرية، ت: محمد الولي، مبارك حنوز، مرجع سابق، ص27.

[3] المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[4] المصدر نفسه 28.

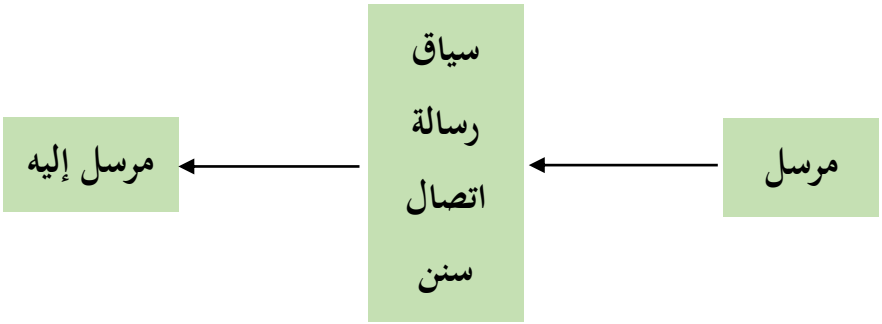

الوظائف اللغوية في النظرية التواصلية

قبل التكلم عن الوظائف اللغوية هنا لا بد من بيان مفهوم الوظيفة اللغوية فقد عرفها بعضهم بـ"المنزلة التي يتبوؤها أي عنصر من عناصر الكلام كالوحدة الصوتية والوحدة الصرفية والكلمة والتركيب في البنية النحوية للملفوظ[1]، ونرى أن يكون تعريف الوظيفة اللغوية بـ"ما يؤديه الدال اللغوي مفردا ضمن التركيب أو بمجموع التركيب باعتبار الغرض الذي سيق له في الكلام، فهذا التعريف يجمع بين الغرض الذي تساق له الكلمة داخل التركيب وبين الغرض الذي يساق له التركيب باعتبار مجموعه ليتناول بعض الفنون البلاغية التي يحكم فيها على مجموع الكلام في أداء الوظيفة وليس على العنصر الواحد فقط. لقد وضع رومان جاكبسون العوامل الستة التي ذكرناها من أجل التوصل إلى الوظائف التي تقوم بها هذه العوامل ومفهوم الوظائف كان مسيطرا على جاكبسون في كتاباته الصوتية والأدبية بل اللسانية عموما، فلا فصل بين الصوت والمعنى بل هما متلازمان، كما لايجوز الفصل بين اللغة (الكلام) ووظائفها[2]، و(اللغة يجب أن تدرس في كل تنوع وظائفها)[3]، فكلّ أسلوب لساني-أدبي أو نحوي- لا بدَّ من أن يكون له وظيفة، ولا فصل بين اللغة والأدب، فكلاهما تحت عباءة اللسانيات، وهو ماقرره جاكبسون (أنا لساني ولا وجود لأي

[1] الوظيفة التبيهية في سورة البقرة من الفصل التمهيدي، نقلا من المعجم العربي الأساسي، طبعة لاروس، 1989، ص 02.

[2] ينظر محاضرات في الصوت والمعنى،ص 33-34.

[3] ومان ياكبسون، قضايا الشعرية، ت: محمد الولي، مبارك حنوز، مرجع سابق، ص27.

مسألة لسانية غريبة عنّي)[1]، بل إنّ عدم الفصل بين اللغة والأدب في الدراسات اللسانية صار مشهورا بين اللسانيين باعتبار أن اللغة هي كيان واحد بل هي جسد واحد لا يمكن فصل جزء منه، فلا فرق بين مسائل الأدب ومسائل اللغة، وهذا اللغة، بمكوناتها المختلفة، تهدف إلى تحقيق وظائف تواصلية وفقاً للهدف والمقصد، كما أكد جوهارد هلبش. علماء اللغة الغربيون، مثل جاكبسون، حددوا وظائف لغوية متعددة تتفاعل مع معتقدات وسلوكيات المتلقي، وهو ما يتوازى مع وظائف البلاغة العربية.[2]

❖ **الوظيفة التعبيرية:** النص يتناول الوظيفة الانفعالية أو التعبيرية للغة، والتي تعبر عن مشاعر المرسل وموقفه من الموضوع[3].

❖ **الوظيفة الانفعالية للغة:** تظهر من خلال نبرة الصوت وأدوات تعبيرية مثل التأوه والتعجب، وتؤثر في المعنى بشكل كبير، كما يوضح جاكبسون في مثال "هذا المساء" بالمسرحية، حيث تؤثر التغيرات الصوتية والانفعالية في فهم الرسالة أكثر من المحتوى نفسه.[4]

وهو ما تكلم عنه علماء البلاغة في انتقال الخبر إلى الإنشاء في مثل قوله تعالى: ﴿والوالداتُ يُرْضِعْنَ أولادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَين ﴾[5] النص يوضح أن عناصر لغوية مثل الاستفسار عن الانتباه و"هم-هم" تُستخدم لضمان

[1] المصدر نفسه 60.

[2] إبراهيم أنيس، تطور علم اللغة، لطبعة الخامسة، دار المعارف، القاهرة، 1986، ص331.

[3] د. عبد السلام المسدي، الأسلوب والأسلوبية، مرجع سابق، ص158.

[4] المصدر نفسه 28.

[5] القرآن الكريم ،سورة البقرة آية 233،ص40.

استمرارية التواصل بين المتكلم والمخاطب، مع التركيز على المشاركة المتبادلة في تحقيق التواصل، وهو ما يسميه مالينوفسكي بـ "التشارك الانتباهي"[1].

❖ **الوظيفة الإفهامية:** الوظيفة الإفهامية أو التأثيرية تهدف إلى نقل المعاني للمتلقي والتأثير عليه نفسيًا أو سلوكيًا، وتظهر في الجمل الإنشائية والخبرية، حيث تختلف الجمل الإنشائية عن الخبرية في التركيب والصرف والفونولوجيا ولا يمكن قياس صدقها[2].

❖ **الوظيفة الانتباهية:** النص يوضح أن هناك عناصر لغوية تثير انتباه المتلقي وتضمن استمرارية التواصل، مثل الاستفسار عن الانتباه وعبارات مثل "هم-هم"، حيث يؤكد جاكبسون على دور المتلقي في الحفاظ على التواصل، مما يعكس "التشارك الانتباهي" كما ذكر مالينوفسكي[3].

❖ **الوظيفة المرجعية:** ويطلق على هذه الوظيفة عدة مصطلحات منها (الموضعية)[4] و(المعرفية والسياقية)[5] الوظيفة المرجعية في اللغة تتعلق باستخدام الألفاظ للإشارة إلى الموجودات والأحداث في الخارج، وتُعتبر أساسية في التواصل. أما الوظيفة الميتا لغوية فهي تفسر معاني الكلمات غير المفهومة وتساعد في توضيحها للمتلقي[6]، وقد سميناها بـ(الوظيفة التعريفية) لأنّ جاكبسون أخذها من المناطقة كما أشار هو[7] الوظيفة التعريفية تهدف إلى توضيح معاني الكلمات أو شرح المفردات غير

[1] رومان ياكبسون، قضايا الشعرية، ت: محمد الولي، مبارك حنوز، المرجع السابق، ص29.

[2] ينظر: رومان ياكبسون، قضايا الشعرية، ت: محمد الولي، مبارك حنوز، المرجع السابق، ص39.

[3] المرجع نفسه، ص30.

[4] لمتوكل، أحمد .نظرية التواصل في ضوء اللسانيات .الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، ط1، 1999م، ص70.

[5] تزفتان تودوروف، قضايا الشعرية، ترجمة محمد بنيس (الدار البيضاء: دار توبقال، 1987)، ص 30.

[6] ينظر: أحمد محمد قدور، الطبعة الرابعة، التواصل اللساني والشعرية، دار الفكر، دمشق، 2006، ص31.

[7] ينظر: رومان ياكبسون، قضايا الشعرية، ت: محمد الولي، مبارك حنوز، المرجع السابق، ص31-34.

المفهومة لضمان التواصل الفعّال بين المتكلم والمتلقي. يمكن أن يكون التعريف تامًا أو ناقصًا حسب الحاجة لتوضيح المعنى بشكل كافٍ[1]، الوظيفة التعريفية تشمل المتكلم والمتلقي معًا، حيث يساهم المتلقي في التأكد من فهم المعاني عبر أسئلة مثل "هل تفهمني؟" أو "هل فهمت قصدي؟"، مما يعكس تواصلًا فعّالًا يتأكد من فهم المعاني المعجمية والسياقية.

❖ الوظيفة الشعرية

التركيز على الرسالة بجوانبها الصرفية والمعجمية والتركيبية يعني النظر إليها بذاتها دون اعتبار للمرسل أو المتلقي. بذلك، تصبح الرسالة هدف التواصل لا وسيلته. وتتمثل الوظيفة الشعرية في هذا السياق بوصفها وظيفة جمالية ترتكز على الرسالة نفسها[2].

وقد وضع جاكبسون خطاطة صغيرة موضحة لهذه الوظائف[3]:

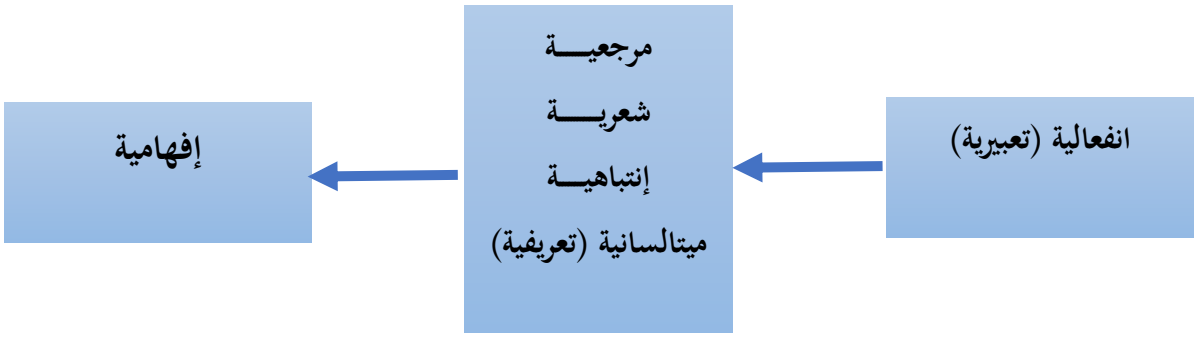

إن العناصر التي لابد من وجودها ا لفظي وهما الاختيار والتأليف)[4]، السنن هو الكلي الذي لا يتحقق إلا بأنواعه، ويمكن تشبيهه باللغة كما فعل دي سوسير لسهولة الفهم. يرى جاكبسون أن الاشتراك

[1] ينظر: ومان ياكبسون، قضايا الشعرية، ت: محمد الولي، مبارك حنوز، المرجع سابق، ص31.

[2] أمبرتو إيكو (Umberto Eco)، السيميائيات والتأويل، الطبعة الأولى، لمنظمة العربية للترجمة، بيروت، 2006، ص12.

[3] ومان ياكبسون، قضايا الشعرية، ت: محمد الولي، مبارك حنوز، ص33.

[4] المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

في السنن قد يكون كليًا أو جزئيًا، أما جهله فيمنع التواصل. وإذا تعددت دلالاته، وجب على المتلقي استخدام الأدلة لتحديد المعنى الصحيح وإتمام التواصل[1].

2- السياق في التداوليات النصية

يُعد جان ميشال أدام من أبرز الباحثين الذين ساهموا في تطوير لسانيات النص من منظور تداولي، حيث عمل منذ السبعينيات على تجاوز النظرة التقليدية التي كانت تحصر التحليل اللغوي في الجملة، مناديًا بضرورة اعتبار النص الوحدة الأساسية للتواصل. في كتابه "اللسانيات النصية: من أنواع الخطاب إلى النصوص"، وفي فصله "التداولية اللسانية والنصية"، يقدّم أدام مقاربة شاملة توضح تفاعل النص مع السياق الخارجي والداخلي، مؤكدًا أن المتكلم لا يمارس اللغة عبر الكلمات المفردة أو الجمل، بل من خلال النصوص الكاملة، وهذا ما يجعل التداولية النصية امتدادًا طبيعياً لاهتمام اللسانيات بالفعل اللغوي. ينطلق أدام من فكرة أن المعنى لا يستقر فقط في التوجيهات النصية، بل في التفاعلات التي تُجبر المتلقي على تأويلها ضمن سياق ثقافي واجتماعي. ولهذا يُعرّف السياق بثلاثة مكونات: السياق الخارجي (وضعية التلفظ)، والسياق المصاحب (النص المجاور)، والمعارف العامة المشتركة (الذاكرة الثقافية)[2].

كما يسلط الضوء على أهمية "الملكة النصية" التي تسمح للمتكلمين بإنتاج نصوص متسقة وملائمة للمقام. ويرى أن اللسانيات النصية تتطلب النظر في المستويين: البنية الصغرى (الداخلية للجمل) والبنية الكبرى (المعنى الكلي والسياق الخطابي). ويعزز أدام رؤيته بمفاهيم كـ "اللسانيات التوجيهية"، التي ترى في النص أداة لإحداث أثر سلوكي أو معرفي لدى المتلقي، بالإضافة إلى دور التناص في إضفاء طبقات دلالية

[1] المصدر نفسه.ص 31-32.

[2] عمر بلخير، مقالات في التداولية والخطاب، د.ط، الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، 2013، ص36-41.

جديدة على النصوص، كما في المثال الشهير لعبارة "قتلني عمر" التي تحولت إلى أداة احتجاج اجتماعي في سياقات لاحقة. ويخلص إلى أن النص ليس مجرد تراكم جمل، بل هو كيان تواصلي يُبنى تدريجيًا عبر التفاعل والسياق، وأن كل نص يجب أن تتوفر فيه مقاييس محددة ليُعد فعلًا تواصليًا، من أبرزها: الانسجام، التناسق، القصدية، القبول، الإخبار، المقامية، والتناص، كما تحددها الباحثة شيرلي كارتر توماس. فالنص، حسب أدام، نتاج تفاعل ديناميكي يستدعي الذاكرة، والتأويل، والتجربة الجماعية، مما يجعل من لسانيات النص مجالًا يجمع بين التحليل البنيوي والدلالة التداولية في آن واحد[1].

يُعدّ السياق أحد المفاهيم المركزية في لسانيات النص، لما له من دورٍ حاسمٍ في تحديد دلالة الخطاب وفهم مقاصده التواصلية. فهو لا يقتصر على المعطيات اللفظية السابقة أو اللاحقة داخل النص، بل يتجاوزها ليشمل الظروف الاجتماعية والثقافية والنفسية التي تنتج النص وتُوجّه تأويله. ومن هذا المنطلق، يؤكد الباحثون أن السياق يمثل الإطار الذي تنتظم ضمنه وحدات النص، وتُبنى من خلاله العلاقات التداولية التي تضمن للنص تماسكه وانسجامه. ويُفرّق اللغويون بين سياقات مختلفة، منها السياق اللغوي (verbal context)والسياق المقامي(situational context) ، حيث يُسهم كل نوع في توجيه تأويل المتلقي وتحديد الوظائف التداولية للعبارات النصية. كما يشير عبد السلام المسدي إلى أن "السياق هو الحقل الذي تتلاقى فيه المعاني وتتفكك فيه الشفرات، وهو الشرط الذي بدونه لا يملك المتلقي مفاتيح الفهم ولا يُحسن إنتاج الدلالة".

وتُعدّ أنواع السياق من الركائز التي يرتكز عليها التحليل النصي في لسانيات النص، إذ يُسهم كل نوع من هذه السياقات في تعزيز التماسك الداخلي للنص وتوجيه عملية التأويل. ويمكن تصنيف السياق إلى

[1] Jean-Michel Adam, La linguistique textuelle. Introduction à l'analyse textuelle des discours, P 119.

عدّة أنماط رئيسية، أبرزها: السياق اللغوي، الذي يتعلّق بما يسبق الكلام أو يليه من أقوال داخل النص ذاته؛ والسياق المقامي، الذي يشمل الظروف الزمانية والمكانية والمخاطبين؛ والسياق الثقافي والاجتماعي، الذي يعكس خلفية المتكلم والمتلقي ومواقفهم ومرجعياتهم. ويمثل هذا التنوع في السياقات شرطاً أساسياً لفهم آليات التماسك النصي، حيث ترتبط العناصر النصية فيما بينها من خلال إحالات واستحضارات سياقية تدعم الاتساق الدلالي والبنائي للنص. وفي هذا السياق، يرى تمام حسان أن "السياق بجميع أنواعه هو المحدّد الأول لمعاني الألفاظ والعبارات، وأن غيابه يؤدي إلى انفصال دلالي يجعل النص مفتقراً إلى التماسك"[1].

وفي الختام نستطيع القول أنَّ التداولية هي فرع من الفروع الحديثة من اللسانيات، تركز على دراسة العلاقة بين اللغة ومستعمليها في سياقات تواصلية محددة، وتعتبر السياق عنصرًا أساسيًا في إنتاج المعنى. تختلف التداولية عن بقية فروع اللسانيات في تركيزها على فهم ما يُقصد بالكلام، وليس فقط ما يُقال. من أبرز نظرياتها "أفعال الكلام" لجون أوستن وسيرل، التي تميز بين القول وما يُنجز من خلاله، بالإضافة إلى "نظرية الملاءمة" التي طوّرها سبيربر وويلسون.

كما أن السياق في لسانيات النص يُعدّ من المفاهيم المركزية، حيث يحدد دلالة الخطاب ويؤثر في تأويله، ويتنوع بين السياق اللغوي، المقامي، والثقافي الاجتماعي. يُظهر هذا التداخل بين التداولية والسياق أهمية تحليل السياق لفهم المعنى والتوجهات التواصلية للنصوص، مما يعزز التماسك الدلالي والنصي.

وقد ارتبطت ارتباطًا وثيقًا بدراسة اللغة في سياقاتها الاستعمالية المختلفة، حتى لُقّبت أحيانًا بـ"السياقية". وممّا لا شك فيه أنَّ السياق يحتل مكانة محورية في مختلف النظريات التداولية، بحيث لا يمكن

[1] *محمد عبد القادر*، علم الدلالة: المفاهيم والتطبيقات)*القاهرة: دار الفكر العربي، 2018* .، ص*219*.

فهم المعنى اللغوي أو تأويله تأويلًا صحيحًا دون استحضار المقام الذي يُنتج فيه الخطاب. فالتداولية لا تنظر إلى اللغة كنسق مجرد من العوامل الخارجية، بل تراها ظاهرة اجتماعية تفاعلية مشروطة بالمواقف، والنيات، والأهداف التواصلية للمتكلمين. وقد بيّن عمر بلخير، في كتابه مقالات في التداولية والخطاب، أن جميع الطروحات التداولية تتقاطع حول فكرة مركزية واحدة، وهي أنَّ فهم الخطاب رهين بفهم السياق الذي أنتج فيه[1].

ويشمل السياق هنا الأبعاد اللغوية وغير اللغوية معًا، مثل الخلفيات المعرفية، والعلاقات الاجتماعية، والظروف المكانية والزمانية. كما أشار إلى أن المفاهيم التداولية الكبرى، كالمقصدية، والافتراض المسبق، والأفعال الكلامية، ترتكز جميعها على تحديد دقيق لعناصر السياق. ومن ثمّ، فإن التداولية تسعى إلى الكشف عن كيفية توجيه المتكلمين لخطاباتهم بما يتلاءم مع ظروف التفاعل لتحقيق مقاصدهم. وعليه، فإن التداوليات تتجاوز حدود الجملة إلى تحليل الفعل اللغوي في حركته الديناميكية داخل المواقف التواصلية. ولعل هذا الارتباط العضوي بين اللغة والسياق هو ما يجعل التداولية أداة فعالة لفهم أعمق للخطاب بمختلف تجلياته.

ترتكز لسانيات النص، وفقًا لجان ميشال أدام، على مجموعة من الأسس النظرية أبرزها مفهوم "الملكة النصية"، الذي يعني قدرة المتكلم أو الكاتب على إنتاج نصوص مترابطة تخضع لقواعد نحوية ومقامية. ويُعد النص بنية مزدوجة؛ إذ يتضمن بُعدًا سيميائيًا يرتبط بالنظام الداخلي للغة وقواعدها، وبُعدًا دلاليًا موسعًا يشمل الإطار الخطابي والمعنى المتحقق داخل السياق التداولي[2]. ويقتضي تحليل النص التمييز بين مستويين

[1] عمر بلخير، مقالات في التداوليات والخطاب، الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، تيزي وزو، الجزائر، 2013، ص37-38-39-40.
[2] عمر بلخير، مرجع سابق، ص37-38-39-40.

متكاملين: مستوى محلي أو بنية مصغرة تركز على دراسة أدوات الترابط النحوي بين الجمل، ومستوى أشمل أو بنية كبرى تهتم بفهم المعنى الكلي للنص والتفاعلات التداولية التي يبنيها. وفي هذا الإطار، تبرز أهمية السياق بوصفه عنصرًا حاسمًا في تحديد دلالة النص، حيث يتوزع إلى سياق خارجي يتصل بالوضعية الاجتماعية والثقافية، ومحيط لغوي مباشر يتمثل في النص المصاحب وترابطه الداخلي، إضافة إلى المعارف المشتركة التي تتجلى في التمثلات الثقافية المتراكمة لدى المتلقي. تؤدي الذاكرة دورًا أساسيًا في تأويل النصوص، عبر استحضار المعارف السابقة والحديثة لفهم معانيها، ويعتمد الانسجام النصي على التفاعل التداولي بين المتكلم والمتلقي، مما يجعل لسانيات النص تدمج بين تحليل اللغة ودراسة السياق لتحقيق فهم أعمق للنصوص.

3-السياق في نظرية التلفظ:

بالاعتماد على مستجدات النظرية التداولية، يتضح أن نظرية التلفظ تمثل تحولًا نوعيًا في مقاربة الظاهرة اللغوية، إذ تنقل مركز الاهتمام من النظام اللغوي المجرد إلى الفعل الكلامي المتحقق في السياق. وقد جاء هذا التحول نتيجة نقدٍ موجه إلى التصور البنيوي الذي رسخه "دي سوسور"، حين فصل بين اللغة باعتبارها نظامًا اجتماعيًا ثابتًا، والكلام باعتباره مجرد تعبير فردي عرضي. غير أن باحثين مثل "أندري مارتيني" أعادوا الاعتبار للكلام، مؤكدين أنه السبيل الأجدى لفهم اللغة، بوصفه مجالًا يتجلى فيه النظام اللغوي ويتحقق بالفعل[1].

في هذا الإطار، جاء مفهوم "التلفظ (énonciation) "ليعيد النظر في طبيعة التواصل، حيث لا تُفهم اللغة باعتبارها معطى قارًّا في ذهن الجماعة، بل كنشاط كلامي متحول يتجسد عبر لحظة الأداء. ويُقصد

[1] حمو الحاج ذهبية، لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب، طبعة ثانية، الأمل للطباعة والنشر والتوزيع2012،ص85-86.

بالتلفظ الفعل الكلامي الذي يُنجزه المتكلم في لحظة بعينها، منتجًا من خلاله "الملفوظ(énoncé) "، وهو الأثر المادي للخطاب. ويتسم هذا الفعل بارتباطه الوثيق بمرجعية المتكلم وظروف الأداء (الزمان والمكان)، وباستخدامه عناصر لغوية تُعرف بـ"المؤشرات التلفظية(les déictiques) "، مثل: "أنا"، "أنت"، "هنا"، "الآن"، التي لا تكتسب معناها إلا داخل السياق التداولي.

وتتمظهر أهمية التلفظ كذلك من خلال البنية الحوارية التي يفترضها، حيث تُبنى العلاقة بين المتكلم والمخاطب على التفاعل والتبادلية، مما يمنح الخطاب بعدًا ديناميكيًا. ويستند المتكلم، في بنائه للخطاب، إلى مجموعة من الآليات مثل الافتراض المسبق، والقول المضمر، والتأويل، والحجاج، ما يكشف عن وعيه بدور المخاطب وبشروط إنجاز القول. ومن هنا، فإن عملية التلفظ لا تتحقق بمعزل عن تضمين الطرف الآخر، إذ لا يتموضع المتكلم كفاعل في الخطاب إلا حين يوجه خطابه إلى مخاطب يُبنى عليه المعنى، وتُحدد انطلاقًا منه مقاصد القول ووظيفته التداولية.

يحدد بنيفيست "Benveniste" إشكالية العلاقة التبادلية بين اللسانيات وتحليل الخطاب، من خلال التساؤل عن إمكانية أن تكون اللسانيات ضرورية لتحليل النصوص، وفي المقابل عن مدى احتياج اللسانيات لتحليل النصوص في تطورها ونمو أدواتها[1].

ويُفترض أنّ الإجابة بالإيجاب على التساؤلين تؤدي إلى تلازمٍ منهجي بين المجالين، بحيث تُصبح اللسانيات القادرة على تحليل الخطاب هي تلك التي تستند إلى مادة الخطاب نفسه، كما أن تحليل النصوص يرفد اللسانيات بالمعطيات الحية. ويتم تشبيه هذه العلاقة بعلاقة الحداد بأدواته، إذ يُنتج أدواته من

[1] حمو الحاج ذهبية، لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب، المرجع سابق، ص143-144.

مادته الخاصة ويستعين بها على إنتاج أدوات جديدة، على غرار اللساني الذي يُنتج تحليله بالاستناد إلى المادة اللغوية النصية المتوفرة.

ويؤكد بنيفيست "Benveniste" على أن تحليل الملفوظ لا يقوم فقط على ترتيب الكلمات، بل على فهم بنيته وآلياته المرتبطة بالمتكلم، والمتلقي، وسياق الحديث. وعليه، فإن اللغة تُدرَس بوصفها أداة فاعلة في الاستعمال، لا كنسق مغلق، مما يجعل هوية المتكلم والمخاطَب تتحدد ضمن علاقات تواصلية تتسم بالاستمرارية والتفاعلية. ويُبرز التحليل مبدأ التناظرية في العلاقة بين المتكلم والمخاطب، حيث لا يتم التلفظ إلا من خلال وجود طرفي التفاعل، إذ يتحدد كل منهما بالفعل التواصلي ذاته. وتُجسَّد هذه المفاهيم بوضوح في الخطاب السياسي، حيث يُبنى التفاعل على قدرة المتكلم على التأثير في المتلقي، دون إلغاء حريته في الفهم والتأويل، من خلال التلميح، والإلحاح، والتوكيد، والافتراضات المشتركة التي تُيسّر عملية التأويل. ويخلص النص إلى أن نظرية التلفظ تمثل مدخلاً تحليليًا فعّالًا لدراسة الخطاب السياسي، خاصة في السياق الجزائري الذي يعكس نماذج واقعية من التفاعل اللغوي والاجتماعي[1].

يمثّل التحول الذي قادته نظرية التلفظ نقلة نوعية في دراسة اللغة، حيث تجاوزت الرؤية التقليدية للغة بوصفها نظامًا ثابتًا من الرموز إلى اعتبارها ظاهرة اجتماعية دينامية مرتبطة بالفعل التواصلي. ويُعد هذا التصور امتدادًا للاتجاه التداولي الذي ركّز على الوظيفة الإنجازية للكلام، كما في أعمال بنيفيست "Benveniste"، التي ساهمت في تحويل الدرس اللساني من التحليل الشكلي إلى دراسة المعنى في سياق التفاعل الواقعي. وتبرز أهمية المقام في هذا السياق بوصفه عنصرًا تفسيرياً لا غنى عنه، إذ تتجاوز دلالة الألفاظ حدود معناها القاموسي لتتحدد تبعًا للظروف المحيطة بالخطاب؛ فالزمن، والمكان، والحالة النفسية والاجتماعية للمتكلم والمخاطَب، جميعها تسهم في إنتاج المعنى. وتتجلى هذه الفكرة في اختلاف دلالة

[1] حمو الحاج ذهبية، لسانيات التلفظ وتداولية الخطاب، المرجع السابق، ص143-144.

عبارة مثل "أهلاً وسهلاً" بحسب السياق، مما يدل على أن المقام لا يعمل كخلفية محايدة بل كفاعل في تشكيل الرسالة اللغوية. وقد تنبّه البلاغيون العرب، وفي مقدمتهم السكاكي، إلى هذا البُعد التداولي حين جعلوا مطابقة الكلام لمقتضى الحال معيارًا للبلاغة. كما أكد علم التداوليات الحديث هذا الطرح، موضحًا أن فهم الإشارات وأفعال الكلام مشروط بإدراك المقام بدقة. ومن ثَم، فإن نجاح الخطاب رهين بقدرة المتكلم على تكييف ملفوظاته مع المقام، مما يجعل من الوعي السياقي شرطًا أساسياً في التواصل الأدبي واليومي على السواء[1].

تؤكد نظريات جون أوستن وطلابها مثل جون سيرل (Searle) على أن المعنى في اللغة لا يُفهم فقط من خلال الكلمات المجردة، بل عبر السياق الكامل الذي يحيط بعملية التلفظ. فعندما تُقال كلمة مثل "الحرية"، لا يمكننا أن نفهم معناها الحقيقي بمجرد النظر إلى القاموس أو المعجم اللغوي، بل يجب أن نراعي من الذي قالها، وفي أي مقام، ولأي غرض. ففي السياق السياسي، قد تشير الحرية إلى التحرر من الاستبداد، بينما في السياق الفلسفي قد تعني قدرة الإنسان على اتخاذ قراراته بشكل مستقل عن أي قيد خارجي أو داخلي. أما في المحيط العائلي، فقد تحمل الحرية معنى مختلفًا يتعلق بمساحة التصرف أو الاستقلالية التي تُمنح لأفراد الأسرة ضمن معايير معينة. لذلك ترى نظريات التلفظ أن الفعل الكلامي (Speech Act)لا ينفصل عن مقامه، بل يتشكل عبر شبكة معقدة من العوامل النفسية والاجتماعية والثقافية. كما أن المتكلم ينوي من خلال كلامه تحقيق أثر معين على المستمع، سواء بالإقناع أو الإخبار أو التأثير العاطفي. هذه النظرة تجعل اللغة أداة ديناميكية متغيرة، لا مجرد وسيلة لنقل المعلومات. وهكذا، يصبح كل تلفظ فعلاً اجتماعياً يتموضع في لحظة تواصلية محددة تتداخل فيها النوايا والمعاني والسياقات المختلفة، مما يجعل فهم اللغة أكثر عمقًا وتعقيدًا مما يبدو عليه للوهلة الأولى[2].

[1] السكاكي، أبو يعقوب يوسف بن أبي بكر، *مفتاح العلوم*، تحقيق نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1987م، ص162.

[2] سيرل، جون، "أفعال الكلام"، ترجمة: فالح عبد الجبار، دار النهضة العربية، بيروت، 1980، ص14.

خلاصة الفصل:

من خلال استعراضنا للمحاور السابقة، تبيّن أن السياق يعدّ مكونًا محوريًا في فهم الخطاب وتحليل معانيه، إذ أسهمت جهود مالينوفسكي وفيرث في تأسيس منظور جديد للغة بوصفها ظاهرة اجتماعية مرتبطة بموقف الكلام ومقامه. وقد أكّد مالينوفسكي على أهمية السياق الموقعي في توليد المعنى، في حين طوّر فيرث هذا المفهوم ليشمل عناصر اجتماعية وثقافية أوسع، مما أرسى دعائم النظرية السياقية الحديثة. وفي السياق ذاته، جاءت نظرية التواصل عند رومان جاكبسون لتوسّع دائرة البحث حول العلاقة بين اللغة والاتصال، عبر تحديد وظائف اللغة المختلفة وربطها بعناصر العملية التواصلية. وهو ما مهّد لفهم أعمق لدور السياق في نقل الرسائل وتحقيق المقاصد التواصلية. وانطلاقًا من هذا التصور، تعززت العلاقة بين التداولية ولسانيات النص، حيث مثّلت التداولية نقلة نوعية في دراسة المعنى عبر التركيز على مقاصد المتكلم وظروف الإنجاز، مع الإشارة إلى أهم النظريات التي تناولت التداولية، مثل أفعال الكلام ومبادئ التعاون، وإبراز جهود رواد هذا المجال. كما امتدت التداولية إلى حقل اللسانيات النصية، فصار النص يُفهم بوصفه وحدة تواصلية متكاملة مرتبطة بالمقام وسياق الإنجاز. وأخيرًا، برزت علاقة نظريات التلفظ بمفهوم المقام، إذ أظهرت دراسات التلفظ أن الفعل اللغوي لا يمكن فصله عن الظرف الاجتماعي والنفسي الذي يصدر فيه. وقد أتاحت هذه النظريات تفسير كيفية تشكّل المعنى من خلال التفاعل بين البنية اللغوية والظروف المقامية.

وهكذا، يتضح أن المقاربة السياقية تمثل حجر الزاوية في دراسة اللغة ضمن أطرها الاجتماعية والتواصلية، بما يجعل فهم الخطاب رهينًا بفهم السياق، المقام، والظروف المحيطة بالحدث الكلامي.

الفصل الثالث: الجانب التطبيقي

I-السياق في النحو

II- السياق في البلاغة العربية

III-السياق في علم التفسير

IV-نماذج من تمظهرات أثر السياق في فهم المقاصد في الفكر التداولي

توطئة

يشكل السياق عنصرًا محوريًا في فهم الخطاب وتوجيه دلالاته، إذ لا يُستوعب المعنى على وجهه الصحيح دون مراعاة ما يحيط بالكلام من ظروف ومقامات. وقد خُصص هذا الجانب التطبيقي لإبراز حضور السياق في علوم اللغة والشريعة، والكشف عن دوره في بناء الفهم السليم. في النحو، يُسهم السياق في تحديد الوظائف الإعرابية وضبط المعنى وفق المقام، مما يقي من الغموض والالتباس. أما في البلاغة، فيُستغل لإظهار جماليات الأسلوب وتناسبه مع الحال والمخاطب. وفي علم التفسير، يُراعى السياق لفهم الآيات ضمن إطار أسباب النزول وتسلسل النصوص. وفي الفكر التداولي، تتضح أهمية السياق في كشف المقاصد الحقيقية من خلال تحليل الملابسات المحيطة بالخطاب. هكذا يلتقي السياق في هذه العلوم بوظيفة تفسيرية واحدة، تُفضي إلى فهم أعمق للغة والدين.

I-السياق في النحو:

1-السياق في التقديم والتأخير

التقديم والتأخير النحوي هو مخالفة الترتيب الأصلي لأركان الجملة في اللغة العربية، تحقيقًا لغرض نحوي أو بلاغي، مع الحفاظ على سلامة التركيب. والسياق في هذا الترتيب يؤثر على المعنى، فيُبرز عنصرًا دون آخر، أو يُخصص، أو يُقصر، أو يُؤكد، مما يوضح أن النحو ليس ميكانيكيًا بل مرتبط بسياق الجملة والغرض من التعبير[1].

وقد نصّ النحاة –كابن هشام في مغني اللبيب –على أن الأصل في ترتيب الجملة العربية هو: **فعل + فاعل + مفعول به** (في الفعلية)، و**مبتدأ + خبر** (في الاسمية)، لكن قد يُقدَّم المفعول أو الخبر أو غيرهما إذا اقتضى السياق ذلك.

أمثلة نحوية توضح السياق في التقديم والتأخير:

1-تقديم المفعول به لغرض التخصيص أو القصر:

إياك نعبد الأصل "نَعْبُدُكَ"، ولكن قُدّم المفعول "إِيَاكَ" لإفادة القصر (لا نَعْبُدُ إِلاَ إِيَّاكَ)

السياق هنا ديني توحيدي يفرض هذا الترتيب.

2-تقديم الخبر على المبتدأ لغرض البلاغة أو التوكيد:

في الدارِ رجلٌ.

الأصل: "رجلٌ في الدار"، لكن قُدّم الجار والمجرور لإفادة التشويق، أو نفي التخصيص.

السياق هنا يرغب في تقديم المكان للإيحاء بأن ما بعده غير متوقّع.

[1] ابن يعيش، شرح المفصل في النحو، دار الكتب العلمية، بيروت، ج1، ص67.

3-تقديم شبه الجملة على الفعل:

على الجبلِ وقفَ المتسلقُ.

الأصل: "وقف المتسلق على الجبل"، لكن تقديم الجار والمجرور يُبرز المكان ويهيئ المتلقي للمفاجأة أو التركيز.

4-تقديم المعمول على العامل لغرض جمالي أو إيقاعي:

صادقًا قلتُ الحق.

تقديم "صادقًا" (حال) قبل الفعل لإبراز الصدق قبل القول، وهو من تأثير السياق الدلالي والنحوي معًا.

خلاصة:

التقديم والتأخير النحوي ليس عبثًا ولا اختيارًا عشوائيًا، بل هو **وسيلة نحوية وسياقية** يُعاد بها ترتيب الكلام حسب الحاجة إلى توكيد، أو تخصيص، أو قصر، أو تشويق، أو اتساق مع السياق العام للخطاب.

2- السياق والغرض (القصد)من الحذف والذكر:

السياق في باب **الحذف والذكر** هو:

المحدد النحوي والدلالي الذي يُبنى عليه قرار المتكلم بذكر عنصرٍ لغوي معين أو حذفه من الجملة، دون الإخلال بالفهم أو التركيب، اعتمادًا على ما يدل عليه المقام أو التركيب السابق أو القرينة[1].

وفي هذا الباب، يعتمد النحويون على مفهوم القرينة السياقية التي تعوّض ما تم حذفه، سواء أكان فعلاً أو فاعلاً أو مفعولاً أو مبتدأً أو غير ذلك.

وقد أشار النحاة مثل ابن هشام والزمخشري إلى أن الحذف لا يكون إلا بوجود ما يدل عليه، فلا يصح حذف بلا قرينة[2].

ثانيًا: الفرق بين الذكر والحذف:

المفهوم	الذكر	الحذف
التعريف	إبراز العنصر النحوي لفظًا في الجملة.	إسقاط العنصر اللفظي مع الإبقاء على دلالته المفهومة من السياق.
متى يُستخدم؟	عند الحاجة للتوضيح أو التوكيد أو منع اللبس.	عند وضوح العنصر من السياق أو خشية الإطالة أو لضرورة بلاغية.

ثالثًا: أمثلة نحوية على السياق في الحذف والذكر:

حذف الفاعل:

- **قُضي الأمرُ**

لم يُذكر الفاعل، لأنه معلوم من السياق (قضاء الله).
الحذف هنا اعتمادًا على المقام والسياق القرآني "يَا صَاحِبَيِ السِّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا"[3] (سورة يوسف، 41).

---

[1] عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق: محمود شاكر، دار المدني، جدة، ص215.
[2] ابن عقيل، شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك، دار التراث، ج1، ص22.
[3] القرآن الكريم، سورة يوسف الآية 41، ص235.

حذف المبتدأ:

- في جواب سؤال: "من في الدار؟"

الجواب: **زيدٌ.**

الأصل: **زيدٌ في الدار.**

حُذف الخبر في الجواب اعتمادًا على سياق السؤال.

3-حذف الفعل:

- في الشعر:

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا

حُذف الخبر (مثل: معروفٌ أنا)، والتقدير يُفهم من السياق.

الحذف يفيد التعظيم والتأكيد، وهو مألوف في مقام الفخر.

4-ذكر ما يُمكن حذفه لرفع الإبهام:

- **زيدٌ قام هو بنفسه.**

ذكر الضمير "هو" رغم أنه يُفهم من "زيد" للتوكيد والاختصاص.
السياق فرض الذكر لمنع اللبس أو لتأكيد المعنى.

رابعًا: وظائف السياق في الحذف والذكر:

1. **رفع الإبهام:** في حال احتمالية اللبس، يُذكر ما يمكن حذفه.
2. **تحقيق الإيجاز:** يُحذف ما دلّ عليه السياق اختصارًا.
3. **التوكيد أو التفخيم:** يُذكر المؤكد مع إمكان حذفه لزيادة التأثير.
4. **التركيز على عنصر معين** يُحذف العنصر غير المهم سياقيًا.

خلاصة:

إن الحذف والذكر في النحو العربي لا يقومان على قواعد شكلية جامدة، بل تحكمهما القرائن السياقية، التي توجه المتكلم أو الكاتب إلى ذكر ما يحتاجه المعنى أو حذفه ما دام السياق يدل عليه. وهذا يُبرز الطابع التواصلي والاقتصادي للغة العربية، ويُظهر مرونة بنيتها النحوية.

II- السياق في البلاغة العربية

1-خروج الأغراض من معانيها الأصلية إلى معانى أخرى تفهم بمعونة القرائن السياقية والأحوال:

يُقصد بخروج الأغراض من معانيها الوصفية إلى أغراض أخرى، انتقال الخطاب من المعنى الأصلي المباشر إلى معانٍ إضافية أو مقاصد بلاغية تتجاوز الظاهر، كأن يتحوّل الوصف إلى مدح، أو الذم إلى هجاء. ويُعدّ هذا التحول من سمات البلاغة التي تُثري النص وتمنحه أبعادًا دلالية متعددة، إذ يُستغل المعنى الظاهري لتحقيق مقصد غير مباشر يخدم السياق. ويتم هذا الخروج وفق مقتضى الحال، مع مراعاة عناصر المقام والبعد التداولي. وتُعد هذه الظاهرة من آليات الإيحاء والتلميح التي تمنح الخطاب مرونة وجمالية فنية. لذا، فإن فهم هذا التحول يتطلب قدرة تحليلية تربط بين البنية اللفظية والغاية المقصودة.

1-1-الأمر

تعريف الأمر لغة: الأمر في اللغة: ضد النهي وهو الطلب، يقال أمر أمرا: طلب منه فعل شيء أو إنشاءه فهو آمر وذاك مأمور.

تعريف الأمر اصطلاحاً بقوله: طلب الفعل على جهة الاستعلاء.

مثال :

"وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة[1]" (البقرة: 43)

الغرض: أمر شرعي ملزم.

[1] القرآن الكريم، سورة البقرة الآية 43، ص43

❖ **الدعاء**

مثال:

"**ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان**[1]" (الحشر: 10)

الغرض: الدعاء والتضرّع إلى الله، لا الأمر.

❖ **الرجاء**

مثال:

" **ربِّ اجعل هذا البلد آمناً**[2]" (إبراهيم: 35)

الغرض: رجاء الأمن والسلام للبلد الحرام.

❖ **التمني**

مثال:

" **رب ارجعون * لعلي أعمل صالحاً فيما تركت**[3]"(المؤمنون: 99-100)

الغرض: التمني (لأمر محال بعد الموت).

[1] القرآن الكريم، سورة الحشر الآية 10، ص546

[2] القرآن الكريم، سورة إبراهيم الآية 35 ، ص255

[3] القرآن الكريم، سورة المؤمنون الآية 99-100، ص343

❖ **التهديد**

مثال:

"عملوا ما شئتم إنه بما تعملون بصير[1]" فصلت: (40)

الغرض: التهديد وليس الإباحة أو التخيير.

❖ **التعجيز**

مثال:

"فأتوا بسورة من مثله[2]" (البقرة: 23)

الغرض: التعجيز لإظهار عجز العرب عن الإتيان بمثل القرآن.

❖ **الإرشاد أو النصح**

مثال:

"**كلوا واشربوا ولا تسرفوا**[3]" الأعراف: 31

الغرض: الإرشاد إلى الاعتدال، لا الأمر الملزم فقط.

1-2-النهي: هو :طلب الكفّ عن الفعل على وجه الاستعلاء والإلزام.

مثال (من القرآن): "ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة[4] (الإسراء: 32)

نهي صريح بمعناه الحقيقي.

[1] القرآن الكريم، سورة فصلت الآية 40، ص481

[2] القرآن الكريم، سورة البقرة الآية 23، ص4

[3] القرآن الكريم، سورة الأعراف الآية 31، ص154

[4] القرآن الكريم، سورة الإسراء الآية 32، ص284

لكن في البلاغة، يخرج النهي عن هذا المعنى إلى أغراض أخرى بلاغية حسب السياق.

الأمثلة:

الغرض البلاغي	مثال من القرآن الكريم	مثال من الشعر العربي	التعليق
الدعاء	"ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا" (البقرة: 286)	لا تُرِدْني بسُخطِك اليومَ إنّي **واقفٌ** بين يديك – (شاعر ديني)	نهيٌ بمعنى الدعاء والتضرّع إلى الله.
الالتماس	"لا تؤاخذني بما نسيت "(الكهف: 73)	لا تَجْزِني اليومَ ذنبًا كنتُ أجهلهُ – (من شعر العتاب)	طلب بلطافة من مساوٍ أو أعلى.
الزجر والتوبيخ	"ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا " (الكهف: 28)	لا تَسألِ الناسَ ما لا تُطيقُ نفسُكُ – (زهير بن أبي سلمى)	نهي يقصد به اللوم والتحذير من السلوك.
الإرشاد	"ولا تنس نصيبك من الدنيا ")القصص: 77(	لا تَشتري العزَّ بالدنيا فتهلكَها – (من شعر الحكمة)	نهي لغرض النصح والإرشاد.
التهكم	"ذق إنك أنت العزيز الكريم ")الدخان: 49(	لا تفرحَنَّ وقد بُليتَ بظالمٍ – (من شعر هجاء الطغاة)	نهي بمعنى الاستهزاء بالخصم.
التحذير	"ولا يجرمنكم شنآن قوم) "...المائدة: 8(	لا تَغْتَرِرْ بالحُلمِ إنّي قادرٌ – (عنترة بن شداد)	نهي فيه تحذير وتهديد مبطن.
التيئيس / التقرير	"لا تعتذروا قد كفرتم) "التوبة: 66(	لا تعتذرْ، فالجرحُ أبلغُ من كلامك – (نزار قباني)	نهي فيه حسم للموقف أو قطع للأمل.

النهي في القرآن والشعر يتجاوز المعنى النحوي المباشر ليؤدي أدوارًا بلاغية فنية عالية.

يُستخدم لتصوير مشاعر الدعاء، الرجاء، التهكم، التحذير، التوبيخ، الإرشاد وغير ذلك.

السياق هو الذي يُحدّد الغرض البلاغي من النهي.

1-3-أسلوب النداء

أسلوب النداء هو تركيب لغوي يُستخدم لاستدعاء المخاطَب أو تنبيهه، ويقوم على علاقة تداولية (براغماتية) بين المتكلم والمخاطب، حيث يهدف المتكلم إلى جذب انتباه المخاطب للقيام بفعل لغوي أو التواصل معه.

❖ التحسُّر

يُستخدم النداء أحيانًا للتعبير عن الألم أو الحزن على شيء مضى.

مثال:

يا ليت الشبابَ يعودُ يومًا

ليس المقصود نداء "الشباب"، بل التحسر عليه.

❖ الندبة

للتعبير عن الحزن الشديد، خاصة على الميت أو المصائب.

مثال:

وا أماه!

نداء يدل على الحزن والرثاء، لا على التنبيه.

❖ **التفجع**

وهو أقرب للندبة لكنه أشد ألماً.

مثال:

يا لهفي على الوطن!

المقصود هو التفجع على حال الوطن.

❖ **التوبيخ أو اللوم**

يُستخدم النداء لتوبيخ المخاطَب أو لَوْمه.

مثال:

يا غافلًا عن مصيره!

غرضه اللوم لا مجرد التنبيه.

❖ **التحذير**

أحيانًا يكون النداء بغرض التحذير من خطر.

مثال:

يا مسافرًا وحدك في الليل!

نداء يحمل تحذيرًا ضمنيًّا.

❖ **الدعاء أو التمني**

يخرج النداء أحيانًا للتعبير عن دعاء أو تمني.

مثال:

يا رب!

نداء غرضه الدعاء لا التنبيه.

❖ الاستغاثة

وهو نداء المقصود به طلب العون أو النجدة.

مثال:

يا لَلمسلمين!

غرضه الاستغاثة لا التنبيه.

❖ التعجب

يُستخدم أحيانًا للتعجب من حال أو أمر.

مثال:

يا لها من شجاعة!

نداء خرج للتعجب.

❖ التهكم أو السخرية

قد يُستخدم النداء لإظهار السخرية من المخاطب.

مثال:

يا نابغةَ الزمان! (لمن أخطأ في أمر بسيط)

سخرية وتهكم لا مدح.

أسلوب النداء قد يخرج عن معناه الأصلي إلى أغراض متعددة بلاغية، تُفهم من السياق، ويُعد هذا من مظاهر **الانزياح البلاغي** الذي يعطي النص الأدبي عمقًا وتأثيرًا.

هل ترغب في أمثلة من الشعر أو القرآن الكريم لتوضيح بعض هذه الأغراض؟

بأسلوب آخر مع جدول مفصل بالشرح

بالطبع! إليك عرضًا آخر أكثر تنظيمًا ووضوحًا، يتضمّن **جدولًا مفصّلًا** يشرح خروج أسلوب النداء من معناه الأصلي (التنبيه) إلى معانٍ وأغراض بلاغية أخرى، مع **شرح مختصر وأمثلة توضيحية**:

خروج النداء عن معناه الأصلي إلى أغراض بلاغية أخرى

رقم	الغرض البلاغي	الشرح المختصر	مثال توضيحي	ملاحظات
1	**التحسّر**	التعبير عن حزن على شيء فات أو ضاع	يا ليت الشباب يعود يومًا	لا يُراد نداء الشباب، بل التحسر عليه
2	**الندبة**	نداء يراد به رثاء الميت أو المصيبة	وامصيبتاه!	يتّصل بـ "وا" غالبًا
3	**التفجّع**	إظهار الحزن الشديد والمفاجئ	يا لهفَ قلبي على فراق الأحبة!	فيه عاطفة أقوى من التحسر
4	**اللّوم أو التوبيخ**	تنبيه يحمل معنى التأنيب على فعل خاطئ	يا غافلًا عن صلاته!	يُشعر بسوء الفعل

5	**التحذير**	تنبيه لتحذير من خطر أو عاقبة	يا آكلاً مال اليتيم، اتقِ الله!	فيه تنبيه وتحذير
6	**الاستغاثة**	طلب العون والنصرة	يا للمسلمين!	كثير في الخطب والنكبات
7	**الدعاء**	التوجه إلى الله بطلب	يا رب اغفر لي	من أشهر أغراض النداء الديني
8	**التمنّي**	إظهار رغبة في شيء يصعب تحقيقه	يا ليتني كنت معهم	مشترك أحيانًا مع التحسر
9	**التعجب**	إظهار الانبهار أو الاستغراب	يا لها من شجاعة!	يتضمّن تعجّبًا ضمنيًا
10	**التهكّم أو السخرية**	يُقال ظاهرًا للمدح وباطنه للذمّ	يا عبقري زمانك! (لقاصر الفهم)	يعتمد على السياق والنبرة

ملاحظات عامة:

* أداة النداء الأساسية هي **"يا"**، وقد تسبق بعض الأدوات الأخرى مثل (وا، أي، أيا، هيا...).
* فهم الغرض البلاغي للنداء يعتمد على **السياق العام** للجملة أو النص.
* هذا التنويع في أغراض النداء يُعد من أساليب **البلاغة العربية** التي تمنح النص قوة تعبيرية وتأثيرًا شعوريًّا.

1-4 أسلوب التمني :

هو أسلوب إنشائي غير طلبي يُستخدم للتعبير عن رغبة المتكلم في حصول شيء محبوب أو مرغوب فيه، يكون غالباً مستحيلاً أو صعب التحقق.

قول الشاعر:

ليتَ وهل ينفع شيئًا ليتُ ليتَ شبابًا بُوِّقَ لي فاشتريتُ

في هذا البيت، يستخدم الشاعر "ليت" لا للتمني فقط، بل ليُعبر عن **التحسر والندم**، وقد زاد من وضوح ذلك تكرار "ليت" وتأكيده بـ"هل ينفع؟"، للدلالة على الحسرة واليأس من استرجاع الماضي.

جدول مفصل لأسلوب التمني وخروجه عن معناه الأصلي

الأداة	المثال	الغرض البلاغي	الشرح
ليت	*ليت الشباب يعود يومًا*	**التحسر على الماضي**	يتمنى الشاعر ما لا يمكن أن يحدث، معبرًا عن أساه على فوات الشباب.
ليت	*يا ليتني لم أتخذ فلانًا خليلا* (الفرقان: 28)	**الندم والتوبيخ للنفس**	تعبير عن ندم شديد على اتخاذ صديق سوء، بأسلوب التمني للتأثير النفسي.
ليت	*ليت الكواكب تدنو لي فأنظمها عقود مدح*	**التعجب والتحسر**	الشاعر يبالغ في الوصف لبيان عجزه عن بلوغ غايته، وكأن ما يريده مستحيل.
ليت	*ليت له من يُنصفه*	**التحسر لحال الغير**	تعبير عن التعاطف مع مظلوم أو محتاج، بأسلوب تمني يبرز الألم النفسي.
ليت	*ليتني أطير في السماء*	**الاستحالة والمبالغة**	الغرض هو إبراز شدة بُعد الأمنية، أي التعبير عن أمر غير واقعي بالمرة.
ليت	*ليت وهل ينفع شيئًا ليتُ*	**اليأس والحسرة العميقة**	تكرار "ليت" مع استفهام بلاغي يدل على أن التمني أصبح بلا جدوى، فيُظهر اليأس.

المصدر: من إعداد الطالبتين بالاعتماد على المعلومات السابقة

رائع، وسؤالك مهم جدًا من الناحية البلاغية والدلالية، لأن **السياق** يلعب دورًا محوريًا في تحديد **الغرض البلاغي الحقيقي من التمني** .فالعبارة التي تبدأ بـ "ليت" لا تعني دائمًا تمنيًا حرفيًا، بل تتلون دلالتها حسب المقام، والموقف، والنية الكلامية.

إليك تفصيلًا لدور السياق:

دور السياق في تحديد الغرض البلاغي للتمني

العنصر	الشرح
سياق المتكلم (الحالة النفسية والعاطفية)	يُحدد ما إذا كان التمني صادرًا عن حزن، فرح، يأس، أو حتى سخرية. مثال: قول الشاعر *ليت الكواكب تدنو لي*، يتضح من السياق أنه لا يتمنى حقيقةً، بل يعبّر عن الإعجاب والعجز.
سياق الزمان	إذا كان التمني متعلقًا بشيء ماضٍ، فالغالب أنه يحمل ندمًا أو تحسرًا. مثل :*ليتني لم أفعله* .أما إذا تعلق بالمستقبل فربما يُفهم على أنه أمل أو تفاؤل.
سياق المكان أو الحدث	قد يشير إلى ظروف سياسية أو اجتماعية أو شخصية تؤثر في غرض التمني. كأن يقول شخص في سجن :*ليتني طيرٌ فأطير*، فيفهم منه الاستحالة والتوق للحرية.
سياق الخطاب (الأسلوب الكامل للنص)	إذا جاء التمني في سياق رثاء، فالغالب أنه تحسر. وإذا جاء في مدح أو هجاء، فقد يكون للتهويل أو التضخيم البلاغي.

المتلقّي (المخاطَب)	أحيانًا يُستخدم التمني للتأثير في السامع، كأن يكون غرضه التحريض أو التحذير، خاصة في الخطب أو الشعر الحماسي أو السياسي.

المصدر: من إعداد الطالبتين بالاعتماد على المعلومات السابقة

مثال تطبيقي على تأثير السياق

خلاصة:

السياق هو المفتاح لفهم التمني: فهو الذي ينقل التمني من كونه مجرد طلب مستحيل إلى أداة تعبيرية قوية للانفعالات والمعاني البلاغية المتعددة (تحسر، ندم، تعجب، لوم، استحالة...).

2-المقام عند الجاحظ

المقام عند الجاحظ يُعدّ من أبرز المفاهيم التداولية التي تنبّه إليها باكرًا، وجعلها جزءًا جوهريًا من منهجه البلاغي في تحليل الخطاب. فقد أدرك الجاحظ أن الكلام لا يمكن فصله عن السياق الذي قيل فيه، وأن المعنى لا يكتمل إلا إذا رُوعي مقام المتكلم والمخاطب، والظروف المحيطة بالمقال. يتضح ذلك جليًا في عبارته الشهيرة" :**لكل مقام مقال"**، وهي قاعدة تداولية تلخص أهمية المناسبة في اختيار القول. الجاحظ يرى أن جودة الكلام لا تتحدد فقط بجمال الألفاظ أو فصاحة التعبير، بل كذلك بمدى مناسبته للمقام الذي قيل فيه[1].

مثال ذلك في البيان والتبيين، أنه يفرّق بين الخطاب الموجَّه إلى العامة والخطاب الموجَّه إلى الخاصة، ويؤكد أن لكل فئة لغتها وأسلوبها، مما يوجب على المتكلم أن يعدّل من خطابه بما يلائم حال السامع. كما

[1] بلفضال إكرام، نظرية المقام عند الجاحظ وأبعادها التداولية، مذكرة جامعية سعيدة، تخصص دراسات لغوية، السنة الجامعية 2018-2019، ص58-62.

يستعرض مواقف أدبية واجتماعية تُبرز كيف أن اختلاف المقام يؤدي إلى تغيّر في التعبير، كأن يكون المقام مقام مدح أو هجاء، أو تعليم أو وعظ.

وبذلك، أسّس الجاحظ لبُعد تداولي مهم، حيث جعل "المقام" إطارًا حتميًا لفهم المعنى وتحديد فاعليته في التأثير والإقناع، وهو ما يجعل مقاربته قريبة جدًا من النظريات التداولية الحديثة في علم اللغة.

ومن الأمثلة التي ضربها الجاحظ على ذلك:

- **تمييزه بين الخطب بحسب مقامها** :إذ يوضح أن خطبة الجمعة تختلف عن خطبة النكاح أو الصلح أو التواهب، من حيث البنية والموضوع والمخاطب، وهو ما يقتضي تنويع الأسلوب تبعًا لكل حالة.
- **مخاطبة طبقات الناس** :فيقول إنه لا يجوز أن تخاطب العامة بخطاب الخاصة، بل يجب أن يوجَّه القول بلغة تتناسب مع فهم ووعي المتلقي، وإلا ضاع المعنى وتأثيره.
- **الاقتصاد في الكلام بحسب المقام** :إذ يحذّر من الإطناب في مقام لا يحتمله السامع، ومن الإيجاز في مقام يحتاج إلى شرح، مشيرًا إلى أن البلاغة تكمن في تقدير المقام لا في الإطناب أو الإيجاز لذاتهما.
- **الاحتكام إلى عرف السياق** :فكان يرى أن حذفًا في الكلام أو اختصارًا لا يُفهم إلا من خلال المقام، كما في مثال سيبويه: "إياك نعبد"، حيث السياق يغني عن ذكر الفاعل لأن المقام يدل عليه.

مثال:

في مقام الدعوة والبلاغ، يُراعي القرآن الكريم اختلاف المقامات بين الترهيب والترغيب. وقد تنبّه الجاحظ إلى هذا التنوع في الخطاب الإلهي.

مثال عن الصيغ المنذرة:

﴿إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ ۝ مَا لَهُ مِن دَافِعٍ﴾ [الطور: 7–8] وهي صيغة تهديد وإنذار شديدة الوقع، تتناسب مع مقام التحذير من عذاب الله.

مثال عن الصيغ المبشّرة:

﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ [الحجر: 49] فهذه صيغة بشارة ورحمة، تُلقي الطمأنينة في قلوب المؤمنين، وتتناسب مع مقام الرجاء والدعوة إلى التوبة.

الجاحظ في تحليله لهذه الأساليب يُظهر كيف أن النص الديني يُراعي المقام في اختيار صيغ الترغيب والترهيب، ويجعل من السياق عنصرًا حاسمًا في دلالة الكلام وتأثيره.

لكل مقال مقام أمثلة من القرآن

* **مقام الترغيب والرحمة:**

عندما يكون السياق لتشجيع الناس على الطاعة وبيان رحمة الله.

مثال:

"قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا" (الزمر: 53)

المقام: دعوة للتوبة، لذا جاء المقال لطيفاً مشجعاً.

* **مقام التحذير والتهديد:**

عندما يكون السياق للزجر أو بيان العذاب للكافرين.

مثال:

"ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ" (الدخان: 49)

المقام: سخرية وتهديد، فجاء المقال متناسباً مع شدة الموقف.

* **مقام الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة:**

مثال:

"ادْعُ إِلِىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ"... (النحل: 125)

المقام: دعوة، فجاءت بأسلوب لين لطيف.

* **مقام الجدال مع أهل الكتاب:**

مثال:

"وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ"... (العنكبوت: 46)

المقام: حوار، فجاء بأسلوب حسن يُقنع ولا يُهين.

* **مقام الإعجاز والتحدي:**

مثال:

"قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ"... (الإسراء: 88)

المقام: تحدٍّ، فجاء المقال قوياً فصيحاً.

* **مقام الدعوة للتوبة**

الآية:

"قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا" (الزمر: 53)

الشرح:

هذه الآية تخاطب أولئك الذين بالغوا في المعاصي والذنوب، وتدعوهم للرجوع إلى الله دون يأس.

المقام :دعوة للتوبة والرجاء.

المقال :جاء لطيفًا، فيه رحمة وتشجيع، بدون تهديد، ليبعث الأمل في قلوب المذنبين ويطمئنهم أن باب المغفرة مفتوح.

* **مقام التحذير والتهديد**

الآية:

"ذُقْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ"...(الدخان: 49)

الشرح:

هذه الآية توجه إلى شخص في العذاب، وتخاطبه بسخرية؛ لأنه كان يتكبر ويدّعي العزة والكرامة.

المقام :تهديد وزجر وسخرية من الكافرين في العذاب.

المقال :جاء شديدًا، فيه تقريع وسخرية، ليتناسب مع حال المذنب في العذاب.

* **مقام الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة**

الآية:

"ادْعُ إِلِىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ"... (النحل: 125)

الشرح:

الله يأمر النبي محمدًا ﷺ أن يدعو الناس إلى الإسلام بأسلوب راقٍ مليء بالحكمة واللين، وليس بالعنف أو القسوة.

المقام :دعوة عامة للناس، وخصوصًا غير المسلمين.

المقال :أسلوب لين، فيه احترام وعقلانية، ليكون أقرب إلى القبول والتأثير.

* **مقام الجدال مع أهل الكتاب**

الآية:

"وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ"... (العنكبوت: 46)

الشرح:

الله يوجه المسلمين إذا جادلوا اليهود والنصارى، أن يكون ذلك بالحسنى، أي بأسلوب محترم بعيد عن السباب أو الإهانة.

المقام :حوار وجدال ديني.

المقال :أسلوب مهذب مقنع، حتى يكون الحوار بناءً ومؤثرًا، لا مثيرًا للعداوة.

* **مقام الإعجاز والتحدي**

الآية:

"قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَٰذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ"... (الإسراء 88)

الشرح:

الله يتحدى الإنس والجن جميعًا أن يأتوا بمثل هذا القرآن، ولو اجتمعوا وساعد بعضهم بعضًا.

المقام :تحدٍّ لإثبات أن القرآن معجز.

المقال :جاء قويًّا فصيحًا في ألفاظه، يحمل نبرة التحدي والإعجاز، ليُظهر عظمة القرآن.

III-السياق في علم التفسير:

لا يختلف اثنان في أن معرفة أسباب النزول تمثل ركيزة أساسية لفهم كتاب الله تعالى على وجهه الصحيح، فهي من الأدوات التي لا يستغني عنها أي مفسّر يسعى لاستنباط المعاني القرآنية بدقة ووعي. وقد عبّر عن هذا المعنى الإمام الواحدي بقوله: «إذ هي أوفى ما يجب الوقوف عليها، وأولى ما تُصرف العناية إليها، لامتناع معرفة تفسير الآية وقصد سبيلها دون الوقوف على قصتها وبيان نزولها» ، مؤكدًا بذلك أن الإحاطة بسياق النزول ضرورية لفك رموز المعاني وتوجيه المقاصد القرآنية.

ننتقل الآن إلى عرض أمثلة تطبيقية من أسباب النزول، نبيّن من خلالها كيف ساهم السياق في إزالة الإشكال، ورفع الغموض، وتحديد مراد الله تعالى من الآيات، مما يعزز من قيمة هذا العلم في خدمة التفسير[1].

1- عند الزمخشري

منهجه في الكشاف

الزمخشري لم يُفرد لأسباب النزول بابًا مستقلًا، لكنه كان يذكر السبب في مواضع متعددة من تفسيره عند الحاجة. وكان يربط بين البلاغة والسياق وبين سبب النزول، ويُوظّفه لتقوية المعنى البلاغي.

نماذج:

قوله تعالى: "وما أنزلنا على قومه من بعده من جند من السماء" [يس: 28]

[1] الزركشي، بدر الدين محمد بن عبد الله، البرهان في علوم القرآن، ج1، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط1، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، 1957م، ص20.

قال الزمخشري: نزلت في حبيب النجار حين قُتل فدخل الجنة، فقال الله هذا القول استهانة بأعدائه[1].

قوله تعالى: " لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ" [آل عمران: 128]

ذكر الزمخشري أن الآية نزلت لما دعا النبي صلى الله عليه وسلم على بعض الكفار بعد أُحد[2].

ملحوظة: الزمخشري يتعامل مع السبب كداعم للمعنى البلاغي، لا كعنصر روائي بحت.

2- عند الطبري

الطبري (ت 310هـ) – تفسيره "جامع البيان"

الطبري يعتمد الرواية كثيرًا، وينقل عن ابن عباس، ومجاهد، وغيرهم.

مثال: في قوله تعالى:

"ولقد همّت به وهمّ بها" [يوسف: 24]

ذكر الطبري عدة روايات في سبب الموقف، مع مناقشة وترجيح[3].

3-عند الواحدي

أفرد مصنفًا خاصًا لأسباب النزول. يعتمد أسلوب السرد المباشر مع عزو الروايات.

مثال: قوله تعالى: "وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ" [الأنعام: 108]

قال الواحدي: نزلت حين قال الصحابة للكفار: لتكفنّ عن سب آلهتنا أو نسبّ نبيّكم[4].

4-السيوطي

[1] الزمخشري، محمود بن عمر، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق عبد الرزاق المهدي، ط1، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 2009م، تفسير يس: 28.

[2] الزمخشري، الكشاف، مرجع نفسه، تفسير آل عمران: 128.

[3] الطبري، محمد بن جرير، جامع البيان في تأويل آي القرآن، تحقيق أحمد محمد شاكر، ط1، دار التراث، القاهرة، 2000م، تفسير يوسف: 24.

[4] الواحدي، علي بن أحمد، أسباب نزول القرآن، تحقيق كمال بسيسو، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1991م، ص141.

جمع فيه ما سبق، وأضاف من كتب متعددة، وكان أكثر شمولًا.

مثال: في آية: "إِنَّ الَّذِينَ جَاءُوا بِالْإِفْكِ" [النور: 11]

ذكر السيوطي القصة كاملة من حديث عائشة رضي الله عنها[1].

خلاصة:

يُعدّ علم أسباب النزول من الركائز الأساسية لفهم التفسير، وقد تنوعت مناهج المفسرين في توظيفه: فمنهم من جعله أداة بلاغية كما فعل الزمخشري، ومنهم من اعتمد على الرواية كما عند الطبري، ومنهم من أفرده بالتأليف كما فعل الواحدي والسيوطي.

[1] السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر، لباب النقول في أسباب النزول، تحقيق عبد الملك بن عبد الله بن دهيش، ط1، دار خضر للطباعة والنشر، بيروت، 1998م، ص132.

IV-نماذج من تمظهرات أثر السياق في فهم المقاصد في الفكر التداولي:

من بين النظريات والظواهر التداولية التي يمكن أن نرى فيها حضوراً مميزاً للسياق في جوهرها بفهم نظريات الاستلزام الحواري ويمكن شرح هذا المحتوى التصوري فيمايلي:

تعريف الإستلزام الحواري:

الاستلزام الحواري في الموروث البلاغي العربي هو المعنى الضمني أو الافتراض الذي يُفهم من الكلام دون ذكره صراحة، ويعتمد على السياق والافتراضات المشتركة بين المتكلم والمخاطب. في البلاغة العربية القديمة، يظهر هذا المفهوم في مصطلحات مثل الإضمار (الحذف الضمني)، والتلويح (الإشارة غير المباشرة)، والمقامية (ارتباط الكلام بسياقه). وقد أكد البلاغيون مثل الجاحظ وعبد القاهر الجرجاني والسكاكي على أهمية السياق والقرائن في فهم المعاني الخفية، وهو ما يتقاطع مع مفاهيم النظرية التداولية الحديثة مثل الاستلزام الحواري ومبدأ التعاون والسياق التواصلي[1].

[1] Voire: François Recanati, Les énoncés performatifs, édition de Minuit, Paris, 1986, p. 143/144.

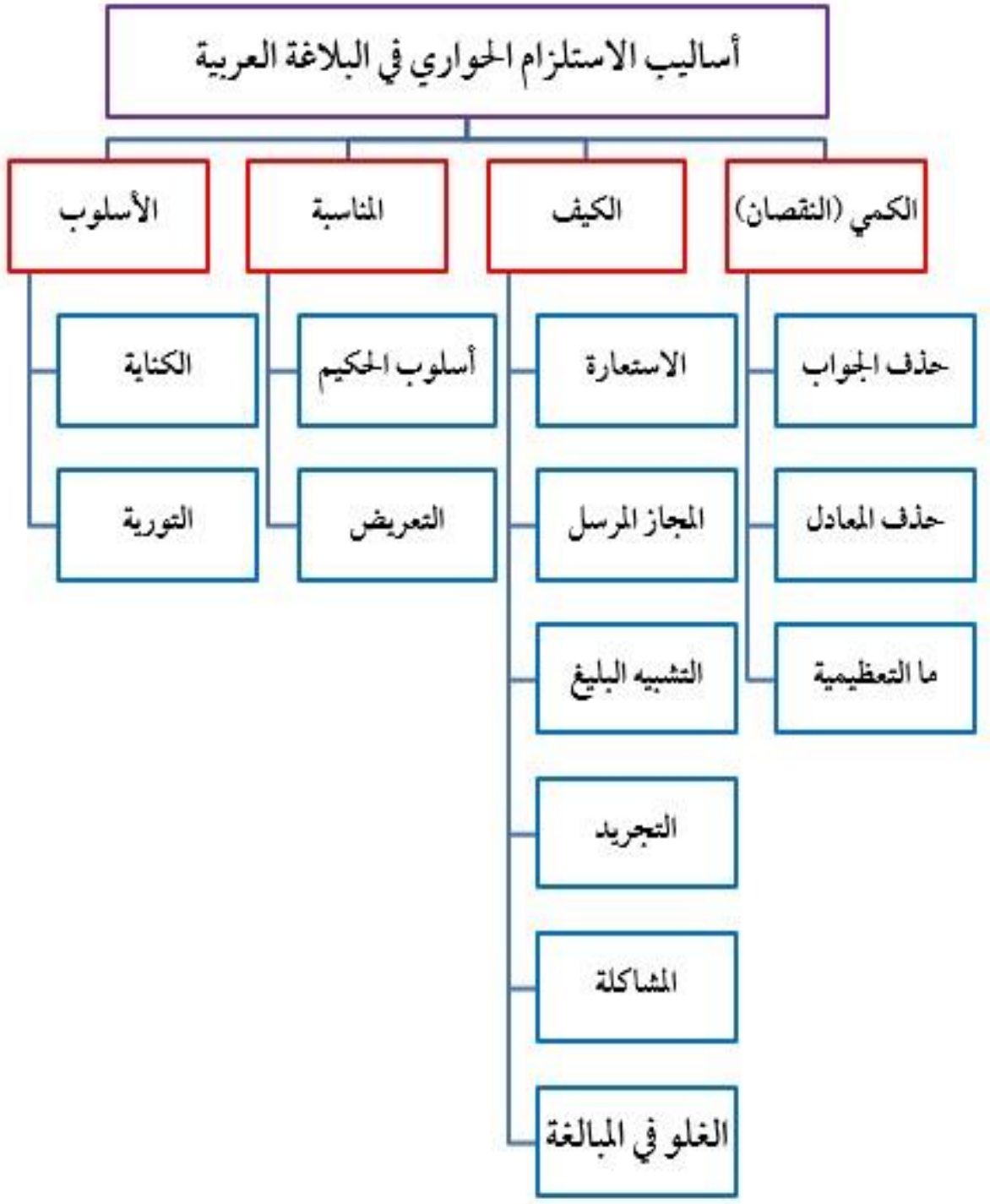

عبد المنعم السيوط، جماليات الاستلزام الحواري في القرآن الكريم، دراسة أسلوبية تداولية"، رسالة دكتوراه، كلية الآداب جامعة عين شمس، ص 71-89

فرع غرايس مبدأ التعاون إلى مجموعة من المبادئ الثانوية، أطلق عليها مصطلحMaximes (مسلمات) وهي على التوالي:

1- مسلمة القدر Quantité وتخص قدر (كمية) الإخبار الذي يجب أن تلتزم به المبادرة الكلامية، حيث أنها توصي يجعل المبادرة الكلامية تفيد القدر المطلوب من الإخبار.

أ – إجعل مشاركتك تفيد القدر المطلوب من الإخبار.

ب – لا تجعلها (المشاركة) تفيد أكثر مما هو مطلوب.

2- مسلمة الكيف Qualite التي تنص على عدم التلفظ بكلمات لا يستطيع المتلفظ البرهنة على صدقها.

3- مسلمة الملائمة Pertinence: وهي عبارة عن قاعدة واحدة متمثلة في: لتكن مساهمتك ملائمة لمقتضى الحال.

4- مسلمة الجهة Modalité : التي تنص على الوضوح في الكلام من خلال اعتمادها على ثلاث مبادئ ثانوية وهي:

- الابتعاد عن اللبس والغموض واستعمال الإيجاز في الكلام وترتيبه.
- تعد هذه القوانين التي صاغها بول غرايس أساسية في كل حوار بناء بين المتحاورين في المجتمع، وقد وقع التركيز على هذه القوانين لأن أي كلام هو في حقيقته ذو بعد حواري بالأساس، ويشمل هذا البعد جميع أنواع الخطاب المنطوق منها (الشفهي) أو المكتوب[1].

[1] عبد الحميد عمروش، السياق ودوره في إنتاج الدلالة دراسة في تفسير الشيخ عبد الحميد ابن باديس، رسالة مكملة لنيل شهادة دكتوراه العلوم في اللغة والأدب العربي تخصص: علوم اللسان العربي، جامعة باتنة 1، السنة الجامعية: 2016-2017.

عندما يُخرق مبدأ من مبادئ الحوار، كقاعدة الكم أو المناسبة، فإن المتحدث لا يُخطئ عشوائيًا، غالبًا ما يقصد إيصال معنى معين بطريقة غير مباشرة، مما يُنتج ما يُعرف بالاستلزام الحواري .فخرق قاعدة الكم، كأن يُعطي المتحدث معلومات أقل مما هو متوقع، قد يدفع السامع إلى البحث عن معنى خفي، يستنتجه من السياق.

1- الإستفهام:

✓ **الاستفهام الإنكاري**

التعريف: هو استفهام لا يُراد به الجواب، بل يُراد به نفي الأمر أو استبعاده، ويُفهم من السياق.

مثال قرآني:

"أفي الله شكٌّ فاطر السماوات والأرض؟" [إبراهيم: 10]

الشرح: لا يُعقل أن يُشك في وجود الله، فالآية تنكر وجود أي شك في خالق السماوات والأرض.

علامة الإنكار: وجود ما يدل على استبعاد أو استنكار في السياق.

✓ **الاستفهام التوبيخي**

التعريف: يُستخدم لتوبيخ الموجَّه إليه السؤال بسبب فعل خاطئ قام به.

مثال قرآني:

"أتعبدون ما تنحتون؟" [الصافات: 95]

الشرح: نبي الله إبراهيم عليه السلام يوبّخ قومه على عبادة أصنام صنعوها بأيديهم.

دلالة التوبيخ: يظهر من غرابة الفعل وتوجيه اللوم ضمنًا فيه.

✓ **الاستفهام التعجبي**

التعريف: يُستعمل للتعبير عن الدهشة من شيء غير متوقع أو مخالف للمنطق.

مثال قرآني:

"كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتًا فأحياكم؟" [البقرة: 28]

الشرح: تعجّب من كفرهم، وقد أوجدهم الله من العدم ثم أحياهم.

علامة التعجب: عادة ما تبدأ بـ "كيف"، وتُفهم من سياق يدل على التناقض أو المفارقة.

✓ **الاستفهام التقريري**

التعريف: يُراد به حمل المخاطب على الإقرار بأمر معلوم.

مثال قرآني:

"أليس الله بأحكم الحاكمين؟" [التين: 8]

الشرح: لا يُطلب جواب حقيقي، إنما يُقرّ القارئ بأن الله هو أحكم الحاكمين.

علامة التقرير: تبدأ غالباً بـ "أليس"، والجواب المقصود: "بلى."

✓ **الاستفهام التحسري**

التعريف: يُعبر عن الأسى والندم على ما فات.

مثال قرآني:

"**يَا حَسْرَتَا عَلَىٰ مَا فَرَّطتُ فِي جَنبِ اللَّهِ** ..." [الزمر: 56]

الشرح: ندم وتحسر بعد فوات الأوان، على التفريط في طاعة الله.

علامة التحسر: وجود كلمات تدل على الأسى مثل: "يا حسرتى"، وظهور الندم في السياق.

ومنه لاحظنا أنَّ أداة الاستفهام هي من أبرز الوسائل البلاغية التي تتداخل مع مقاصد المتكلم بحسب السياق الذي ترد فيه، إذ لا تقتصر وظيفتها على طلب الفهم أو الاستعلام فحسب، بل قد تنزاح عن معناها الظاهري لتحمل دلالات بلاغية متنوّعة كالتعجّب، والتوبيخ، والإنكار، والتشويق، والتقرير، وغيرها من الأغراض البلاغية التي لا يُكشف عنها إلا بقرينة المقام. فالسياق – بشقيه اللفظي والحالي – هو الحاكم في توجيه دلالة الاستفهام وتحديد مقصده، ولولاه لاختلط على المتلقي فهم الخطاب. فمثلاً، قول المتنبي: "أأنا المقَدَّمُ فيهمْ وَأُنا المتَّهم؟" لا يُراد به الاستفهام الحقيقي، وإنما الإنكار والتعجّب من حاله بين قومه، وهكذا تتجلّى أهمية السياق في تأويل الخطاب، إذ لا تكفي دراسة الأداة بمعزل عن محيطها النصي لفهم الغرض البلاغي، وإنما تكتسب معناها الكامل من علاقتها بالسباق واللحاق، ومن هنا تتجلى عبقرية الاستعمال البلاغي في اللغة العربية، التي ترتقي بالأداة النحوية إلى أداة تواصلية متعددة الدلالات.

2–الاستعارات والكنايات بوصفها أفعال كلامية غير مباشرة:

الأفعال الكلامية الغير مباشرة هي أقوال لا تتطابق مع مقاصدها الظاهرة، بل تُفهم في ضوء السياق. وتُعد الاستعارات والكنايات من أبرز أمثلتها

أ–الإستعارة

الاستعارة هي نوع من التشبيه حذف أحد طرفيه، فعندما يشبه الكاتب شيئًا بشيء آخر دون أن يذكر أداة التشبيه أو وجه الشبه، فإنه يستعير لفظًا من مجال معين ليعبر عن معنى في مجال مختلف , و هذا ما نقصد به الفعل الكلامي الغير المباشر الذي يفهم من السياق .

مثال 1:

"غرست في قلبه الحقد".

- **التحليل:**

"الحقد" لا يُغرس كالنبات، لكن هنا استُعيرت كلمة "غرست" من عالم الزراعة لتدل على زرع الحقد في القلب.

فهمها من السياق:

- كلمة "قلبه" لا يُغرس فيه شيء مادي، والقرينة "الحقد" توضح أن الغرس مجازي وليس حقيقياً.

مثال 2:

"تكسّرت مجاديف الأمل".

التحليل:

لا يوجد مجاديف حقيقية للأمل، بل هو تعبير مجازي.

فهمها من السياق:

المتكلم يصف فقدان الأمل أو تعثر الطموحات، واستخدم "مجاديف" استعارة لوسائل الدفع والتقدم.

ب- الكناية

أما الكناية، فهي تعبير لا يُقصد به المعنى الحرفي الظاهر، بل يُراد به معنى ملازم له يُستنتج من خلال السياق والتأمل.

مثال 1:

"فلان طويل اللسان".

- **التحليل:**

لا يقصد أن لسانه طويل فعليًا، بل أنه كثير الكلام أو سليط اللسان.

- **فهمها من السياق:**

كلمة "طويل" هنا ليست صفة جسدية بل تعبر عن صفة معنوية مرتبطة بالحديث أو الإساءة.

مثال 2:

"فلانة بيضاء اليد".

- **التحليل:**

المقصود هنا ليس لون اليد، بل أنها كريمة أو فاضلة.

فهمها من السياق:

- "بيضاء اليد" تُستخدم كناية عن الصفات الطيبة مثل الكرم أو النزاهة، خاصة إذا ذُكرت في سياق مدح[1].

تحليل:

تحدث عبد القاهر الجرجاني في كتابه أسرار البلاغة عن أهمية السياق بوصفه عنصراً مركزياً في فهم المعنى البلاغي للنص، حيث أكد أن دلالة الألفاظ لا تُفهم بمعزل عن مواضعها في الكلام، بل إن المعنى يتولد من نظم الكلمات بحسب موقعها وسياقها. وبيّن أن البلاغة ليست في المفردات بذاتها، بل في طريقة تركيبها وانسجامها داخل السياق، مما يجعل المعنى تابعًا للنظم لا للفظ المفرد. ويرى أن السياق يحكم على اللفظة بالبلاغة أو الضعف بحسب دورها في تحقيق الغرض المقصود، وهو ما يُعرف عنده بـ"نظرية النظم" التي تُعد أساس نظريته في البلاغة.

ومن هنا يتّضح من نظرية عبد القاهر الجرجاني في "أسرار البلاغة" أن السياق يحتلّ مكانة محورية في فهم المعنى البلاغي، إذ لا تُقاس بلاغة الكلام بالألفاظ المفردة، بل بطريقة نظمها وتآلفها داخل الجملة. فالمعنى يتولّد من العلاقات بين الكلمات بحسب مواقعها في السياق، لا من الكلمات منعزلة عن غيرها. ولذلك، فإن ما يُضفي على النص بلاغته هو حسن التنسيق بين عناصره لتحقيق الغرض المقصود. وبهذا، يُعدّ السياق معيارًا حاسمًا في تحديد بلاغة التعبير وضعفه.

[1] ابن منظور، لسان العرب، مادة (بيض)، تحقيق: عبد الله علي الكبير وآخرين، بيروت: دار صادر، ج1، ص. 394.

استنتجنا أنَّ السياق يشكّل العنصر الأساس في نظرية البلاغة عند الجرجاني، إذ إن المعنى البلاغي لا يستمد قيمته من الألفاظ المفردة، بل من انتظامها في بنية تركيبية منسجمة تخدم الغرض المقصود. وعليه، فإن البلاغة وفق "نظرية النظم" لا تُقاس بجمال المفردات في ذاتها، بل بمدى توافقها وانسجامها داخل السياق، مما يجعل السياق معيارًا جوهريًا في تقويم الفصاحة والبلاغة في النصوص.

خلاصة الفصل

يتّضح لنا من خلال العرض السابق أن السياق ليس عنصرًا هامشيًا أو مكملًا لفهم النصوص، بل هو شرط ضروري لفهمها وتأويلها، إذ إن تجاهل السياق قد يؤدي إلى انزياحات في المعنى أو قراءات قاصرة للخطاب. فقد بيّن النحو العربي من خلال ظواهر مثل التقديم والتأخير والحذف والذكر، كيف أن السياق يوجّه الغرض البلاغي ويوسّع المعنى خارج حدوده الظاهرة. كما أظهرت البلاغة العربية، من خلال الجاحظ وغيره، أن المقام والسياق يشكّلان الخلفية الحقيقية لتحديد الدلالة والهدف من القول. وفي علم التفسير، تكشف أعمال الزمخشري والطبري والواحدي والسيوطي عن وعي عميق بدور السياق في استنباط المقاصد الشرعية واللغوية للنص القرآني.

أما في الفكر التداولي، فإن مفاهيم كالاستلزام الحواري والكناية والاستعارة، توضح مدى اعتماد المعنى على السياق، إذ لا يمكن إدراك المقصد الحقيقي للمتكلم إلا من خلال الموقف التواصلي الكامل. عليه، فإن دراسة السياق تمثّل مدخلًا متكاملاً لفهم اللغة وتفسيرها، وتفتح آفاقًا واسعة في البحث اللساني والبلاغي والتفسيري، حيث تتقاطع فيه الأبعاد النصيّة والوظيفية والتأويلية، لتصنع للغة حياة تتجاوز البنية إلى المعنى.

خاتمة

خاتمة

ولا يمكن الحديث عن مركزية السياق دون التوقف عند إسهامات علماء العربية في مجالات متداخلة كالنحو والبلاغة والتفسير، فقد اعتبر النحاة ـ في ممارساتهم التحليلية ـ المقامَ موجّهًا رصينًا للتراكيب النحوية وتنظيمها، مما يعكس وعياً مبكراً بدور السياق في تحديد البنية النحوية وترجيح أحد الاحتمالات التركيبية على غيره بحسب مقتضى الحال. وفي البلاغة، كما هو الحال عند الجاحظ والسكاكي وابن جني، نجد حضوراً واضحاً لما يمكن تسميته بنظرية "النظام"، التي تربط بين المعنى ومواضعه، وتُخضع التراكيب البلاغية لمقتضيات المقام وسياق التخاطب. أما المفسرون، فقد أولوا عناية كبيرة لسياق نزول الآيات، معتبِرين إياه من القرائن التأويلية الحاسمة في فهم المعنى القرآني وتحديد دلالاته، وهو ما يجعل التفسير فعلاً تداولياً بامتياز، يستند إلى فهم الملابسات النصية والظرفية التي أحاطت بالنص.

وإذا كانت التداوليات النصية عند مالنوفسكي وفيرث قد أسست لفهم عميق لدور السياق في إنتاج المعنى داخل الخطاب، فإن نظرية جاكبسون في الوظائف اللغوية تُقدِّم إطاراً إضافياً لفهم العلاقة بين البنية اللغوية ومقتضيات المقام، بما ينسجم مع ما ذهب إليه علماء العربية القدماء. وهكذا يتبين أن السياق، بمختلف تجلياته، شكّل مرتكزاً تفسيرياً ومنهجياً عميقاً في مختلف علوم العربية، وهو ما يفتح آفاقاً واسعة لقراءة هذا التراث في ضوء النظريات اللسانية المعاصرة، خصوصاً التداولية منها.

النتائج:

- كشفت الدراسة أن المفاهيم اللسانية في التراث العربي، مثل المقام والحال والمخاطَب، تناولت السياق بصورة غير مباشرة، غير أنها افتقرت إلى إطار نظري موحد أو منهجية متكاملة في هذا المجال.
- أوضحت نتائج البحث أن اللسانيات الحديثة منحت السياق دورًا محوريًا في تحليل الخطاب، نظرًا لأثره البارز في الكشف عن الأبعاد التداولية والمعرفية للنصوص.
- بيّنت الدراسة وجود إمكانية لتحقيق تكامل مثمر بين التصورات التراثية والمعالجات اللسانية الحديثة، مما يمهّد الطريق لتأسيس نظرية عربية معاصرة تقوم على أسس تداولية ومعرفية صلبة.

- تبيّن أن غياب إطار نظري شامل لمفهوم السياق في التراث لا يرتبط بقصور في إدراك أهميته، وإنما يعكس تباين الرؤى والمقاصد العلمية لدى علماء اللغة آنذاك، وهو ما يستوجب إعادة قراءة هذا التراث برؤية تداولية معاصرة.
- أظهرت الدراسة أن معالجة السياق في اللسانيات الراهنة تجاوزت البعد اللفظي، لتشمل الأبعاد الاجتماعية والثقافية والنفسية، مما يثري أدوات التحليل في الدراسات اللغوية الحديثة.
- أكدت المقارنة بين المعالجة التراثية والمعاصرة للسياق أن هناك إمكانية لتطوير مناهج تعليم اللغة العربية، من خلال دمج البعد التداولي بما يسهم في تنمية الكفاءة التواصلية للمتعلمين.

الآفاق المستقبلية

تستدعي الحاجة العلمية إعادة قراءة التراث اللساني العربي برؤية تداولية حديثة، تسمح بإعادة توظيف مفاهيمه وفق النظريات اللسانية المعاصرة. ويتطلب بناء لسانيات عربية حديثة تطوير جهاز مفاهيمي يراعي السياق النصي والتفاعلي. كما يُفضل توجيه البحث نحو دراسات مقارنة تجمع بين المقاربات التراثية والمعاصرة بمنهجيات تفاعلية تضمن تأسيس مشروع متكامل للسانيات التداولية.

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المصادر والمراجع المعتمدة بعد القرآن الكريم

أولاً: القرآن الكريم

ثانياً: قائمة المصادر

تتضمن المصادر الأعمال الأصلية التي استند إليها الباحث بشكل مباشر في دراسته. تُستخدم هذه المصادر لتقديم المعلومات الأولية التي تُبنى عليها التحليلات والاستنتاجات.

1. ابن منظور، لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، ط02، 2003.
2. القاموس المحيط، تح: يوسف البقاعي، دار الفكر، بيروت، لبنان، (د.ط)، 2010.
3. أساس البلاغة، تح: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط01، 1998.
4. ابن قتيبة، أدب الكاتب، د.ط، دار الجيل للطبع والنشر والتوزيع، بيروت، 2001.
5. ابن قتيبة، الشعر والشعراء، تحقيق: أحمد محمد شاكر، الطبعة الأولى، الجزء الثاني، دار المعارف، القاهرة، مصر.
6. ابن يعيش، شرح المفصل، تح: إميل بديع يعقوب، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ط، 2001.
7. ابن جني، الخصائص، تح: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط02، 2003، مج2.
8. الجاحظ، البيان والتبيين، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط04، مج1، 1975.
9. تمام حسان، اللغة العربية؛ معناها ومبناها، الطبعة السادسة، دار النشر: عالم الكتب، القاهرة، 2009.
10. السكاكي، مفتاح العلوم، تحقيق: نعيم زرزور، الطبعة الثانية، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987.
11. السبكي، جمع الجوامع، تحقيق: محمود محمد الطناحي وعبد الفتاح أبو غدة، دار المنهاج، ط01، جدة، 2006.
12. الغزالي، المستصفى في علم الأصول، دار الكتب العلمية، بيروت، طبعة02، 1993.
13. الشاطبي، الموافقات، 271/3.

14. الطبري، جامع البيان في تأويل آي القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، ط01، دار التراث، القاهرة، 2000.

15. الواحدي، أسباب نزول القرآن، تحقيق: كمال بسيسو، ط01، دار الكتب العلمية، بيروت، 1991.

16. السيوطي، لباب النقول في أسباب النزول، تحقيق: عبد الملك بن عبد الله بن دهيش، ط01، دار خضر للطباعة والنشر، بيروت، 1998.

- عمر بلخير، مقالات في التداولية و الخطاب، الأمل للطباعة و النشر و التوزيع، تيزي وزو، الجزائر، 2013.

ثالثاً: قائمة المراجع

تتضمن المراجع الأعمال التي اعتمد عليها الباحث لدعم وتحليل المعلومات المستخلصة من المصادر. تُستخدم هذه المراجع لتوسيع الفهم وتقديم سياق إضافي للموضوع:

1. طه عبد الرحمن، تجديد المنهج في تقويم التراث، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، ط04، 2012.

2. مهدي صالح سلطان الشمري، في المصطلح ولغة العلم، كلية الآداب، جامعة بغداد، بغداد، (د.ط)، 2012.

3. عبد الوهاب أبو صفية، دلالة السياق منهج مأمون لتفسير القرآن الكريم، دار عمار، عمان، الأردن، ط02، 2012.

4. محمد محمد يونس، علم التخاطب الإسلامي دراسة لسانية لمناهج علماء الأصول في فهم النص، دار المدار الإسلامي، ط01، 2006.

5. د. فوزي عبد الرزاق، السياق ودلالته في توجيه المعنى، الطبعة الثانية، دار الكتب العلمية، بيروت، 2010.

6. د. هادي نهر، علم الدلالة التطبيقي، تقديم: الدكتور علي الحمد، الطبعة الأولى، دار الأمل للنشر والتوزيع، إربد، الأردن، 2007.

7. د. عواطف المصطفى، الدلالة السياقية عند اللغويين، د.ط، دار السياب للطباعة والنشر والتوزيع، لندن، المملكة المتحدة، 2007.

8. د. محمد عبد المطلب، البلاغة والأسلوبية، الطبعة الأولى، مكتبة لبنان ناشرون، الشركة المصرية العالمية للنشر، 1994.

9. عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، تحقيق: محمود محمد شاكر، الطبعة الخامسة، مكتبة الخانجي، القاهرة، 2004.

10. عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، الطبعة الأولى، دار الكتب العلمية، بيروت، 2001.

11. د. طاهر حمودة، دراسة المعنى عند الأصوليين، د.ط، دار الجميل للنشر والتوزيع والإعلام، مصر، 2001.

12. د. أحمد عبد الغفار، التصور اللغوي عند الأصوليين، شركة مكتبات عكاظ للنشر والتوزيع، جدة، المملكة العربية السعودية، الطبعة الأولى، 1981.

13. د. نهاد الموسى، نظرية النحو العربي، د.ط، دار البشير للثقافة والعلوم، 1987.

14. د. أحمد مختار، علم الدلالة، القاهرة: عالم الكتب، طه، 1998.

15. مؤسسة الرسالة ناشرون، أبو هلال العسكري، الفروق في اللغة، المحقق: جمال عبد الغني.

الفهرس

مقدمة ---------- أ

مدخل ---------- **7**

الفصل الأول: السياق من خلال آفاق الفكر اللّساني العربي القديم

1-السياق من خلال أفق الدرس البلاغي العربي ---------- 12

2-السياق من خلال أفق التراث النحوي العربي ---------- 22

3-السياق من خلال أفق أصول الفقه ---------- 39

خلاصة الفصل ---------- 47

الفصل الثاني: السياق من خلال آفاق الفكر اللّساني العربي الجديد

توطئة ---------- 49

1-المعطى السياقي عند مالينوفسكي وفيرث (FIRTH & MALINOWSKI) ---------- 50

2- السياق في التداوليات النصية---------- 66

3-السياق في نظرية التلفظ: ---------- 70

خلاصة الفصل:---------- 74

الفصل الثالث: الجانب التطبيقي

توطئة ---------- 76

I-السياق في النحو: ---------- 77

حذف الفاعل:---------- 79

II- السياق في البلاغة العربية ---------- 82

III-السياق في علم التفسير: ---------- 100

IV-نماذج من تمظهرات أثر السياق في فهم المقاصد في الفكر التداولي: ---------- 103

خلاصة الفصل ---------- 111

خاتمة---------- 114

قائمة المصادر والمراجع---------- 117
ملخص ---------- 122

ملخص:

السياق هو من الركائز الأساسية في الدراسات اللسانية، حيث أولاه التراث اللساني العربي القديم اهتمامًا كبيرًا، كما يتجلى في كتابات الجاحظ، وابن جني، وعبد القاهر الجرجاني، الذين نظروا إلى المعنى بوصفه نتاجًا للتفاعل بين اللفظ والمقام. وقد تجسدت هذه الرؤية في نظرية "النظم" و"المعاني"، اللتين أبرزتا البعد التداولي للغة في سياقها الثقافي والتواصلي. وفي اللسانيات الحديثة، وخاصة مع نشوء اللسانيات التداولية، توسّع مفهوم السياق ليشمل البُعدين اللغوي وغير اللغوي، كالنية والمقام والوظيفة التواصلية، كما ظهر في أعمال أوستن، وسيرل، وغرايس. ومن خلال المقارنة بين آفاق التراث والتنظيرات اللسانية المعاصرة، يتّضح أن التفكير العربي القديم سبق إلى إدراك عدد من المبادئ التداولية التي تؤكد على مركزية السياق في إنتاج المعنى، ما يدعو إلى إعادة قراءة هذا التراث في ضوء المعارف اللسانية الحديثة، بالإضافة إلى الجاحظ ونظرية النظام و العلماء البلاغيين الذين ذكرتماهما....النحو الذي اعتبر المقام بمثابة موجه رصين للتراكيب النحوية وتنظيمها.. وكذا المفسرين الذين اعتبروا سياق نزول الايات من القرائن المهمة في عملية تفسير وتأويل القران الكريم.

كلمات مفتاحية: السياق، التراث اللساني العربي، اللسانيات التداولية، النظم، المقام، عبد القاهر الجرجاني، اللسانيات المعاصرة، التواصل اللغوي، المعنى، التداولية، نظرية النظام، المقام، القرائن المهمة، القران الكريم.

Résumé

Le **contexte** constitue l'un des fondements essentiels des études linguistiques. Il a occupé une place centrale dans la tradition linguistique arabe ancienne, comme en témoignent les écrits d'al-Jahiz, d'Ibn Jinni et d'Abd al-Qahir al-Jurjani, qui concevaient le sens comme le fruit de l'interaction entre le mot et la situation d'énonciation. Cette conception s'est incarnée dans les théories du nazm (agencement) et des maʿānī (sens), mettant en valeur la dimension pragmatique du langage dans son cadre culturel et communicationnel. Dans la linguistique moderne, notamment avec l'émergence de la linguistique pragmatique, la notion de contexte s'est élargie pour inclure les dimensions linguistique et extralinguistique, telles que l'intention, la situation d'énonciation et la fonction communicative, comme illustré dans les travaux de Austin, Searle et Grice. La comparaison entre les perspectives de la tradition et les théories linguistiques contemporaines révèle que la pensée linguistique arabe classique avait anticipé plusieurs principes de la pragmatique moderne, en soulignant le rôle central du contexte dans la construction du sens. Cela invite à une relecture de ce patrimoine à la lumière des acquis des sciences du langage modernes. À cela s'ajoutent les apports de la grammaire arabe, qui considérait la situation comme un guide fondamental dans l'organisation syntaxique, ainsi que ceux des exégètes, qui voyaient dans le contexte de révélation des versets du Coran une des clés essentielles de leur interprétation et explication.

Mots-clés : contexte, tradition linguistique arabe, linguistique pragmatique, nazm, situation d'énonciation, ʿAbd al-Qāhir al-Jurjānī, linguistique contemporaine, communication linguistique, sens, pragmatique, théorie de l'agencement, indices contextuels, Coran.

Abstract :

Context is one of the foundational pillars of linguistic studies. It received considerable attention in the classical Arabic linguistic tradition, as reflected in the works of al-Jāḥiẓ, Ibn Jinnī, and ʿAbd al-Qāhir al-Jurjānī, who viewed meaning as the result of the interaction between the utterance and the situational context. This perspective was embodied in the theories of nazm (syntactic arrangement) and maʿānī (meanings), both of which emphasized the pragmatic dimension of language within its cultural and communicative setting.

In modern linguistics—particularly with the rise of pragmatics—the concept of context expanded to include both linguistic and extralinguistic dimensions, such as intention, speech situation, and communicative function, as seen in the works of Austin, Searle, and Grice.

A comparison between the insights of the classical tradition and contemporary linguistic theories reveals that early Arab scholars had already grasped several core principles of pragmatics, highlighting the centrality of context in meaning construction. This calls for a renewed reading of this intellectual heritage in light of modern linguistic knowledge.

Moreover, classical Arabic grammar acknowledged the guiding role of context in structuring syntactic forms, while Qur'anic exegetes regarded the circumstances of revelation as key contextual indicators in interpreting and understanding the Qur'anic text.

Keywords: context, Arabic linguistic tradition, pragmatics, nazm, speech situation, ʿAbd al-Qāhir al-Jurjānī, modern linguistics, linguistic communication, meaning, pragmatic theory, syntactic arrangement, contextual clues, Qur'an.